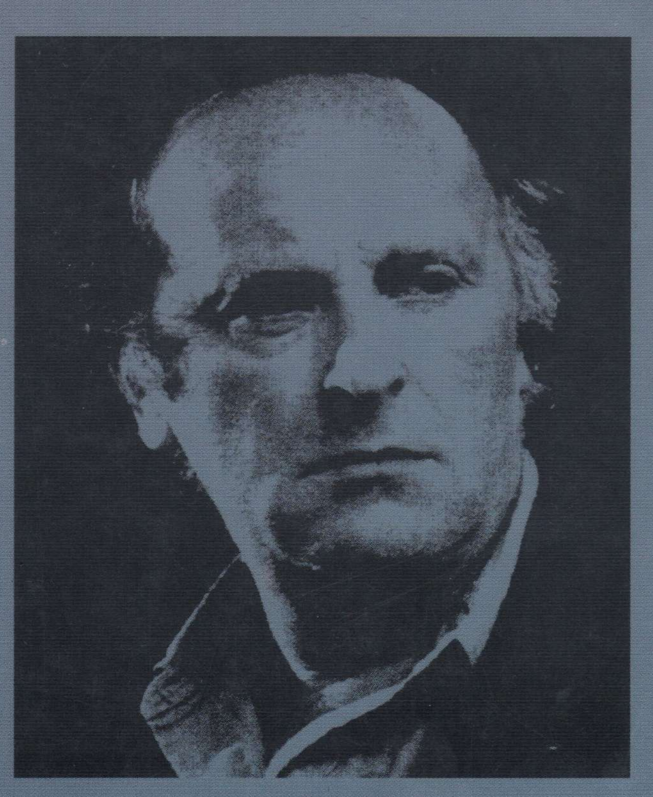
١٩٨٧

مكتبة نوبل

يوسف برودسكي

قصائد مختارة







ترجمها عن الروسية
بُرهان شاوي

مراجعة
سعدي يوسف

قصائد مختارة

١٩٨٧

مكتبة نوبل

يوسف برودسكي

قصائد مختارة

ترجمها عن الروسية

بُرهان شاوي

مراجعة

سعدي يوسف





اسم المـــؤلف : يوسف برودسكي
عنوان الكتـــاب : قصائد مختارة
تـرجـــمـــــة : برهان شاوي
الـنـــاشـــــــر : دار المدى للثقافة والنشر
المجمع الثقافي/ أبو ظبي
الطبـعـة الأولى : ١٩٩٨

Author: Joseph Brodsky
Title : Selected Poems
Translator: Burhan Shawi
Al- Mada : P. C.
Cultural Foundation
First Edition 1998

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٧٧٧٢٠١٩ - ٧٧٧٦٨٦٤ - فاكس : ٧٧٧٣٩٩٢
بيروت - لبنان صندوق بريد : ٣١٨١ - ١١
فاكس : ٤٢٦٢٥٢ - ٩٦١١

المجمع الثقافي

الامارات العربية المتحدة - أبو ظبي
ص .ب : ٢٣٨٠
تلفون : ٢١٥٣٠٠

Al Mada : Publishing Company F.K.A.
Nicosia - Cyprus , P.O.Box . : 7025
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or
7366 . Tel: 7776864 , Fax: 7773992
P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon,
Fax : 9611- 426252

Cultural Foundation
U.A.E. Abu Dhabi
P.O.Box: 2380
Tel. 215300

يوسف برودسكي

يعتبر برودسكي من أصغر الكتاب الذين حازوا على جائزة «نوبل» للآداب عمراً ، اذ كان حينها (١٩٨٧) في الرابعة والخمسين . وحينما وقف على المنصة لإلقاء كلمته استذكر خمسة من الشعراء هم أوسيب ماندلشتام ، مارينا تسفيتايفا ، آنا آخماتوفا ، روبرت فروست ثم و .هـ . أودن قائلاً : (لقد سميت هذه الأسماء الخمسة فقط لأن مواقف اصحابها ومصائرهم لها جليل القيمة لديّ ، فلولا هؤلاء لكنت كإنسان وككاتب بلا قيمة تذكر ولما وقفت اليوم هنا على هذه المنصة) ، ولو استثنينا فروست وأودن لرأيناه قد سمّى اعظم اهرامات الشعر الروسي في هذا القرن .

ولد يوسف برودسكي في ١٨ تموز عام ١٩٣٣ في لينغراد المقاتلة والتي خصها بالكثير من قصائده ومذكراته . بدأ كتابة الشعر وهو في السادسة عشرة من عمره ، حيث كشف منذ قصائده الأولى عن مهارة فنية وأصالة فريدة ونبرة خاصة ركزت عليه انتباه محبي الشعر والسلطات معاً .

ولم يكن يبلغ العشرين من عمره حتى كان معروفاً باعتباره أهم شاعر معارض وغير رسمي ، بل أصبحت كل قصيدة يكتبها حدثاً أدبياً يهز أروقة الجامعات وأروقة المخابرات أيضاً ، اذ يتناقلها الناس خفية بعد ان يستنسخوها بأيديهم .

في عام ١٩٦٤ اعتقل برودسكي لأول مرة وحكم عليه بالسجن والنفي مع الاشغال الشاقة لمدة خمس سنوات بتهمة (التطفل) على الأدب . غير ان كتابا وفنانين امثال : أخماتوفا ، مارشاك ، شستاكوفج وغيرهم ، رفعوا احتجاجاً الى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي والى السلطات المعنية من اجل اطلاق سراحه ، وهكذا أطلق سراحه بعد ثمانية عشر شهراً من الاشغال الشاقة .

غير ان بعض قصائده هربت الى خارج روسيا وترجمت ونشرت في اوربا مما صعّد من محاصرة السلطات له حيث منع من النشر في الصحافة السوفيتية نهائياً . لكن قصائده جمعت في اوروبا وامريكا وصدرت له عام ١٩٦٥ لأول مرة مجموعة (قصائد) ثم (محطة في الصحراء) . وفي عام ١٩٧٢ اعتقل مرة اخرى وأجبر على الرحيل من روسيا فاختار الرحيل الى امريكا حيث أقام وتوفي فيها . وهناك اصدر مجاميعه الشعريه (نهاية عصر رائع) ، وكتب رحلات ومسرحية واحدة بعنوان (المرمر) . بيد ان الاضطهاد لم يطله وحده فحسب وانما امتد لوالديه اذ منعتهما السلطات السوفيتية من زيارة ابنهما خارج البلاد حتى وفاتهما عام ١٩٨٤ و١٩٨٥ دون رؤيته ورؤية ذلك اليوم الذي وقف فيه ابنهما امام أدباء العالم متوجاً مسيرته الشعرية المجيدة بتسلم جائزة (نوبل) للآداب عام ١٩٨٧ .

نصوص برودسكي الشعرية لها نكهة خاصة ، انها تداخل غريب بين الصوفية والسريالية ، واستخدام مذهل للأصوات وللقطعْ المونتاجي من أجل خلق مناخ للقصيدة ، بل ان لدى برودسكي استخداماً غريباً وفريداً للقصص وللاستعارات التوراتية لاسيما في قصيدته الطويلة (اسحق وابراهيم) مما يمنح قصائده بعداً فلسفياً ميتافيزيقيا... (إن اشعاري جميعها تكاد تكون عن شيء واحد هو : الزمن) ، هكذا قال في احد تصريحاته .

بُرهان شاوي

مرثية كبرى الى جون دون*

لقد رقد جون دون ، ومن حوله رقدت الأشياء كلها .
الجدران ، الأرضية ، الشراشف ، اللوحات ،
الطاولة ، السجاد ، مزاليج الأبواب ، المحجن ،
مشجب الملابس ، الخزانة ، الشموع والستائر .

كلها رقدت ، القنينة ، الأقداح ، الطسوت ،
الخبز ، سكينة الخبز ، أواني الخزف ،
الكريستال والصحون ،
قنديل النوم ، الغسيل ، خزانات الملابس ،
الزجاج ، الساعات ،
درجات السلم ، الأبواب... فالليل في كل مكان .

* جون دون : (١٥٧٢ ـ ١٦٣١) شاعر انجليزي غنائي ، كتب قصائد طويلة مثل (طريق الروح) و(تشريح العالم) ، ميتافيزيقي ومؤسس المدرسة الميتافيزيقية في الشعر الانكليزي .

في كلّ مكان ليل ، في الزوايا ، في العيون ، في الملابس ،
بين الأوراق ، على طاولة الكتابة ، في الكلام المنمّق ،
في مفردات الكلام ، في الحطب ، في ملقط الفحم ،
في حجر الموقد المطفأ ، في الأشياء كلها .

في الجلابيب ، في القباقيب ، في الجوارب ، في الظلال ،
خلف المرايا ، في الأسرة ، خلف المقاعد ،
ومرة أخرى في الطسوت ، في الصلبان ، في الملاءات ،
في المكانس أمام الباب ، في الأحذية ، كلّ الأشياء رقدت .

لقد رقدت كلّ الأشياء ، النافذة ، الثلج على النافذة ،
السقوف المجاورة بيضاء الإنحدار ،
قممها مثل شرشف المائدة .
كل سكّان الحارة رقدوا ، فأطر النوافذالمحطمة موات .

القناطر المقوّسة ، الجدران ، النوافذ ، رقدت جميعها ،
الأرصفة ، جذوع العتلات الخشبية ، القضبان وأحواض الزهور .
لاضوء يومض ، وليس عجلات تصر ،
الأسوار ، الزخارف ، السلاسل ، الأوتاد .

لقد رقدت الأبواب ، الخواتم ، الأيدي ، المحاجن ،
الأقفال ، المزاليج ، المفاتيح ، والمقابض ،
لاهمسات ، لاحفيف ، لاطرقات تسمع ،
لاشيء سوى خشخشة الجليد ، الكل يرقد...
والفجر بعيد .

لقد رقدت السجون ، القلاع... كما رقدت كل
أدوات حانوت السمك ، رقدت جثث الخنازير ،
البيوت ، خلفيات البيوت ، رقدت الكلاب البرية ،
وفي المخابىء رقدت القطط بآذان مرهفة السمع .

الفئران رقدت ، الناس ، وكذلك لندن رقدت في سبات عميق ،
وفي الميناء رقد مركب شراعي ، الماء وكذا الثلج
الذي يَبُح في جوفه ليصب بعيداً
في الأقاصي مع السماء الراقدة .

لقد رقد جون دون ، وقد رقد البحر معه ،
الساحل الطباشيري رقد عند حافة البحر ،
كلّ الجزر رقدت مطوّقة بذراع الرقاد ،
بينما أغلقت كل حديقة بثلاثة أقفال .

الدردار ، الزان ، الشربين ، الصنوبر رقدت كلهّا ،
منحدرات الجبال ، الجداول على المنحدرات ،
وسبل الجبال رقدت كلها .
وكذا الثعالب والذئاب رقدت ،الدب رقد
في الفراش ، بينما غطّت كثبان الثلج مداخل الجحور .

الطيور رقدت ، فلقد انقطعت عن الشدو ،
نعيق الغربان لم يسمع ، ولم يعد ضحك البوم
يسمع أيضاً ، الأفق الانكليزي هادىء ،
تلألأت نجمة ، بينما ذهب الفأر للإعتراف بخطاياه .

الأشياء كلها رقدت ، ففي قبورهم رقد الموتى
جميعهم ، رقدوا بسكون ، وعلى الأسرة
رقد الأحياء في بحر قمصانهم ، فرادى ،
غارقين في لجة النوم ، رقدوا بذعر .

كل الأشياء رقدت ، الأنهار رقدت ، الجبال ،
الغابات ، الوحوش ، الطيور ، عالم الجماد ، والأحياء .
ليس هناك سوى الثلج المتساقط من قبضة الليل
والذي سوف يرقد على الرؤوس .

الملائكة رقدت ، والقدّيسون رقدوا ، تاركين
العالم المليء بالمخاوف
في رقدة للعار المقدّس ،
جهنّم رقدت والفردوس البهي كذلك .
ليس هناك من لايرقد في بيته بمثل هذه الساعة .

الرب قد رقد ، فالأرض غريبة الآن ،
فالعيون لاتبصر والآذان لاتصغي ،
الشيطان قد رقد ومعه رقدت البغضاء
على الثلج في حقول انكلترا .

الفرسان رقدوا ، الملاك ونفيره أيضاً ،
الجياد قد رقدت ، إنها تعدو في النوم ،
حتّى أسراب الملائكة المتحاضنة
رقدت تحت قبة كنيسة بولص .

جون دون قد رقد ، ومعه رقدت القصائد ،
الصور ، القوافي... القوية منها والضعيفة
قد اختفت... أمّا الشتائم ، الحنين ، الآثام ،
فقد رقدت كلّها داخل حروف كلماتها .

كل قصيدة بالنسبة للأخرى ، مثل أخت ،
وعلى الرغم من أنهن يتهامسن فيما بينهن فكلّ منهن
ترتجُ قليلاً .
إنهن بعيدات عن بوّابات السماء
إنهن فقيرات ، كثيفات ، صافيات ، مليئات بالتماسك

السطور ترقد بعمق ، و(اليامبو)* انتفخ بشدة
و(التراخيات)** رقدت واقفة من على الجانبين
مثل العسس
وفيهما رقدت رؤى النسيان
وخلفهما ثمة شيء آخر رقد بعمق... إنه المجد .

لقد رقدت الهموم جميعها ، والمعاناة أيضاً ،
رقد السبات ، وتعانق الخير والشر ،
الأنبياء رقدوا ، وشلال الثلج المنهمر
يبحث عن بقع سوداء صغيرة في رحاب المكان .

الكل قد رقد ، وقد رقدت أيضاً ضجة الكتب ،
رقدت أنهار الكلمات ، تلك التي غطيت
بثلج النسيان .

---

* (اليامبو) : إيقاع شعري يتألف من مقطع صائت وآخر منبور .
** (التراخيات) : إيقاع شعري يتألف من مقطع طويل منبور وأخر صائت .

لقد رقدت اللغات كلها ، ورقدت معها
الحقائق التي تتضمنها ،
لقد رقدت السلاسل التي تربطها ببعض ،
فبخفوت تقلقل حلقاتها .

الجميع رقدوا في سبات عميق ، القديسون ،
جميع زبانية الجحيم ، الحواريون ، أطفالهم ،
لاشيء سوى الثلج المنهمر على ظلمة الطريق ،
فما من نأمة تسمع في هذا الكون الفسيح .

ثمّ ماذا...! هل تسمع... هناك في الظلمة الباردة
يبكي انسان ، إنه يهمس خوفاً
ثمة أحد تُركَ لرحمة شتائه
إنه يبكي... في الظلمة ثمة أحد .

صوت نحيل... نحيل مثل ابرة
بلا خيط ، وحده يتخبّط في الثلج ،
البرد في كل مكان...
إنه مثل ابرة استطاعت وهي تخيط
من الليل وحتّى الفجر... وبمثل هذا العلو...!

«من ينتحب هناك ؟ أهذا أنتِ ياملاكي
تنتظر الرجوع ، تبحث عن الثلج ، مثل الصيف...
ينتظر عودة حبّي ؟ أتذهب في حلكة الظلام الى البيت ؟
وهل هذا أنت من يصرخ في الظلمة ؟... لاجواب .

«أهؤلاء أنتم ياملائكتي ؟ فهذا الغناء الجماعي الحزين...
ذكّرني بجوقة الندابات...
وهل قرّرتم أيها الراقدون مغادرة كنيستي فجأة ؟
أهؤلاء أنتم ؟» صمت

«أهذا أنت يابولص ؟ لقد اخشوشن صوتك
من كثرة الحديث المتزمّت .
أهذا أنت الذي طأطأ رأسه الأشيب هناك في الظلمة ، الدامسة باكياً ؟
«لاشيء سوى صدى الصمت .

«أهذه هي اليد التي حجبت الرؤيا...
والتي تضيء كلّ مكان هناك مثل الفنار ؟
أهذا أنت أيها السيد ؟ ربّما أفكاري متوحشة...
لكنّ النشيج الباكي اشتد علواً .

صمت... سكون...«أهذا أنت ياجبريل
قد نفخت في البوق... ومن ياترى ينبح هناك عالياً ؟
أترى أنا الوحيد الذي فتح عينيه
بينما أسرج الفرسان جيادهم .

الكل يرقد بعمق... تحت قبضة الظلام القوية...
بينما السعاة اقتربوا من ضجة السماء
أهذا أنت ياجبريل ، حاملاً بوقك ، تنتحب
وحيداً هناك...
في هذه الظلمة ، وفي عزّ الشتاء » .

لا... هذا أنا ، جون دون ، أنا روحك
إنني أقيم مأتماً في أعالي السماء
لأنني بإبداعي خلقت
أفكاراً ومشاعرَ ثقيلة مثل قيد .

وأنت ، بهذا الحمل الثقيل استطعت الطيران
وسط المعاناة والآثام...بل حلّقت أعلى من ذلك...
لقد كنت طيراً لذا رأيت شعبك
لقد حلّق فوق كل الأماكن وفوق جميع السقوف .

لقد رأيت كل البحار ، وكل الأقاصي...
لقد حدّقت الى الجحيم في أعماقك ، ومن ثمّ رأيتها
في اليقظة...
مثلما في اليقظة رأيت الفردوس بوضوح
مثلما في أشد إطاراتها حزناً .

لقد رأيت الوجود كأنه جزيرتك
كما حدّقت بهذا الأقيانوس العظيم...
الظلام يحيط بكل الجهات... ليس هناك غير
الظلام والبكاء...
لقد طاردت الرب نفسه ، ورجعت متقهقراً .

لكن هذا الحمل الثقيل يعيقك عن التحليق
حيث العالم ليس سوى مئة برج
وأنهار كالأشرطة ، وحيث عند النظر الى الأسفل
يبدو حتّى يوم القيامة ليس بهذا الرعب...!!!

ومن تلك البلاد حيث لايتغيّر الطقس
فكل شيء من هناك يبدو كحلم كسيح
حيث الرب يبدو من هناك ليس سوى بصيص النور

القادم من نافذة البيت الأخير
الغارق في ضباب الليل .

والحقول تمتد هناك . حيث لم يمسّها محراث قطُّ...
ليس من سنين فحسب وإنّما منذ قرون...
وليس هناك سوى الغابات تقف مثل سور ملتوٍ...
ومامن شيء سوى المطر يرقص فوق الأعشاب العالية .

وهناك الحطّاب ذو الجواد الضامر
يعدو تائهاً في أدغال الخوف...
يرى فجأة بعد أن تسلّق شجرة الصنوبر ،
النار في واديه ، هناك في البعيد .

كل شيء... كل شيء بعيد ، وهنا النواحي مجهولة...
والنظرة الهادئة تتسلّق السقوف البعيدة...
ثمة ضوء شديد ، هنا لايسمع المرء نباح الكلاب...
لا ولا يسمع قرع الأجراس...

لكنه سيدرك أن كلّ شيء بعيد...
وسيقود حصانه عجلاً الى الغابة ثانية...

وهنا... الزمام ، عربة الجليد ، الليل ، وهو نفسه
والجواد البائس سيسمون رؤيا...
من رؤى الانجيل .

وهكذا ها أنا أبكي ، أبكي... لاأرى أي طريق
لقد قدّر لي أن أعود إلى الأحجار...
فلقد حرمت من العودة الى هناك طائراً
إذا قدّر لي أن أعود الى هناك ميّتاً فقط .

نعم... نعم ، وحيداً بعد نسيانك ياعالمي...
على الأرض الرطبة المنسية ، لكي
تسبح فيك بقايا الرغبات ، بألم
كي وهي أثناء عومها ، ترفو الفراق

ببكائي أقلقت هدوءك... أصغِ...
سقط ثلج نقي في عتمة الظلام...
ماداً الوشيجة ليرفو فراقنا...
بينما تطير الأبرة للأمام وللوراء دائبة الحركة

لست أنا... وإنّما أنت

لست أنا... وإنّما أنت ياجون دون من ينتحب
أنت ترقد وحيداً ، بينما الصحون ترقد في الدولاب...
طالما الثلج ينهمر على البيت الراقد
وطالما الثلج ينهمر من هناك على الظلام .

مثل طائر يرقد في عشه...
له دروبه النقية وأحلامه بحياة كريمة
واثقاً الى الأبد بالنجوم التي
تختفي الآن خلف الغيوم .

مثل طائرٍ ، طاهرِ الروح
برغم الطرق الأرضية المكتظة بالخطايا
إنه أكثر عفوية من أعشاش الغربان
على بيوت الزرازير الرمادية الفارغة .

ذاك الشبيه بالطائر ، يستيقظ صباحاً
إنه يرقد الآن تحت ملاءات بيض...
مادام الثلج والحلم ينسجان المسافة
بين روحه وجسده الراقد .

كل الأشياء رقدت ، لكنّ ثمة اثنتين أو ثلاث
قصائد تنتظر النهاية شامتة بأفواهها الدرداء...
من أن الحب الجسدي مثل واجب المغنّية...
بينما الحب الروحي هو وليمة الكاهن .

وسواء كان حجر الطاحونة الذي جداره الماء...
فإنه سيطحن في كلّ مرة الحبوب نفسها...
وإذا ماقتسم أحد الحياة معنا...
فمن ذا الذي سيقتسم الموت معنا ؟

في الوشاح ثقب ، يشدّه من يشاء
الى كل النهايات ، يذهب ، ويعود ثانية
يشدّه مرة أخرى ، ليس سوى قبة السماء
تأخذ أحياناً في عتمة الظلام ماحاكته الإبرة .

نم... نم ياجون دون... ارقد ولاتظن نفسك
فالمعطف مثقوب... مثقوب ، إنه يتهدّل هناك على المشجب...
انظر اليه... وابحث من خلل الغيوم
عن نجمتك التي حرست عالمك كل هاتيك السنين!!

٧ ـ ٣ ـ ١٩٦٣

أفعال

ثمة أفعال صامتة تحيط بي...

أفعال شبيهة برؤوس غريبة...

أفعال جائعة ، أفعال عارية

أفعال متعدية ، وأفعال لازمة .

أفعال بلا فاعل... أفعال هكذا ببساطة

أفعال تعيش في المخابىء

تتحدّث في المخابىء

تلد في المخابىء

تحت بناية الأمل اللامحدود

ذات الطوابق العديدة .

كل صباح تذهب الأفعال الى العمل
تقوم بمزج الملاط ونقل الحجارة
لكنها عند بناء المدينة لاتبني مدينة
وإنّما تقوم بنصب تمثال لوحشتها .

وحينما ترحل ، فكأنها ترحل الى ذاكرة غريبة
تخطو برتابة... كلمة بعد كلمة
ترحل مع إيقاعات أزمانها
صاعدة طريق الجلجلة ذاته .

السماء تعلو عليها ،
مثل ما يعلو طائر فوق مقبرة القرية...
إنها تقف أمام باب مقفل
لاأحد يطرق... مسامير منسية
في الماضي
في الحاضر
وفي المستقبل...

لاأحد يجيء... لاأحد يأخذها
ضربات المطرقة تصير إيقاعاً خالداً

الأرض تستلقي تحتها بمبالغة

بينما الإستعارة تحلّق فوقها كالسماء .

١٩٦٢

الرب في القرية

في القرية ، لايعيش الرب في الزوايا...
مثل ما يعتقد الساخرون... وإنّما في كل مكان...
فهو يجعل من السقف والصحن مقدّسين...
ويقسّم الأبواب الى نصفين متساويين بإنصاف...

في القرية...
إنه فائض عن الحاجة
فهو يطبخ عدساً في القدر الكبير أيّام السبت...
يرقص أحياناً والنعاس يأخذه... قرب الموقد...
ويغمز لي بعينيه وكأنّما يشهّدني على ذلك...
إنه يبني سياجاً خشبياً...
ويزفّ الصبية لرجل الغابة

وللمزاح
يدع حارس الغابة ، الذي يصوّب على البط البحري ،
يرمي طلقات قصيرة المدى ، طلقات فاسدة...
تُمْكن ملاحظة كلّهُ هذا...
حينما يسمع المرء صفارة التخريف
بأنها على كلّ حال ، الفضيلة الوحيدة ،
التي تليق بملحد في قرية .

١٩٦٤

من أوديسوس الى تليماك

يابني...

حرب طروادة قد انتهت...

من ذا الذي انتصر ؟ لم أعد أتذكّر

يجب أن يكون الإغريق انتصروا

فمثل هذا العدد من القتلى في البلاد الغريبة

لايمكن لغير الإغريق أن يقدّموه

وعلى كل حال ، فلقد اتّضح للعائدين

أن الطريق جدُّ طويلة...

وكأنّما المكان قد تمدّد

حينما أضعنا الزمان هناك .

إنني لأجهل أين أنا...

ومارأى أمامي...

إنها جزيرة قذرة...

ضفاف ... عتلات بناء... وبهائم صغيرة...

حديقة متوحشة ، وملكة ما...

أعشاب... وحجارة .

عزيزي تليماك...

الجزر كلّها متشابهة...

فحينما تكون الرحلة طويلة هكذا...

يتعب الذهن من عدّ الأمواج...

والعيون تذرف دمعاً من عتمة الأفق...

وعفريت الماء يسد الأذن باللحم...

لم أعد أتذكر كيف انتهت الحرب ؟

مثل ما لاأتذكر كم هو عمرك الآن...

فاكبرْ ياولدي تليماك ... وأكبرْ...

فالآلهة وحدها تعلم إنْ كنا سوف نلتقي ثانية...

وأنت الآن لستَ كما كنتَ ذاك الصبي...

الذي كنت أقود الثيران أمامه...

ولو لم يكن هناك (پالاميد)* لكنّا نعيش الآن معاً...

ولكن...

ربّما كان محقّاً...

فغيابي حرّرك من آلام أوديب...

وأمست أحلامك الآن طاهرة .

١٩٧٢

* (پالاميد) : مربي تليماك ، وهو الذي ساهم في دفع أوديسوس الى اتّخاذ قراره بالمشاركة في حرب طروادة .

جزء من كلام

وعند كلمة «المستقبل» تنطلق الفئران...
من اللغة الروسية جماعات...
قاضمات قطع الذكرى اللذيذة...
المخرومة مثل قطع جبنتك...
فبعد كل هذه الشتاءات الكثيرة...
أمسى ليس بذات الأهمية : ماذا أو من...
يقف خلف ستائر النافذة عند الزاوية...
وفي الصماخ لايطن (الى...) اللاأرضية...
وإنّما حفيف الستارة .
فللحياة ، التي هي هدية ، لاينظر المرء بانتقام ،
إنها تشحذ أسنانها عند كلّ لقاء...

إنها لاتبقي من كامل الإنسان لك غير جزء من الكلام...

جزء من كلام... جزء من كلام...

١٩٣٥ _ ٧٦

(……)

لقد ولدت وترعرعت في مستنقعات البلطيق...
بالقرب من الأمواج الرمادية والرصاصية...
تلك التي تتضارب بشكل زوجي...
من هنا جاءت القوافي وهذا الصوت الخافت...
الذي ينضفر بينهن مثل شعر مبلّل...
إذا ماقدّر له ذلك ، حامياً نفسه بالمرفقين
حيث لايمكن للاذن أن تستمع للهدير ، وإنّما
للتصفيق القادم من الشاشة ، للشرفات ، الأكف
لأباريق الشاي ، وفي أقصى الأحوال
تستمع لصرخات النوارس...
ففي هذه الأقاصي المنخفضة يمكن تحصين القلب...
من الأخطاء التي لايمكن إخفاؤها... وهنا يمتد البصر

الى آفاق أبعد...

فالمكان عائق دائم لعبور الصوت...

بينما العين لاتنظر لأخطاء الصدى مطلقاً .

١٩٧٥ ـ ٧٦

محطة وقوف في الصحراء

ثمة قليل من الإغريق في مدينة (لينينغراد) الآن ،
لأننا قد هدمنا الكنيسة الإغريقية...
وأقمنا على أرضها قاعات للحفلات الموسيقية...
لكن في هذه الهندسة ثمة يأس...
رغم أن قاعة تضم أكثر من ألف مقعد...
ليست مثيرة لليأس بالكامل... فهي معبد...
إنها معبد للفن...
ومن هو المذنب أخيراً ، إذا ماكان
الغناء يحشد من الناس أكثر ممّا تستطيعه راية الإيمان!
ومن المؤسف حقاً... أننا لن نرى تلك القبة الغريبة
بعد الآن ، بل خطأ قبيحاً ومستوياً...
وفي ما يخص قبح التقاسيم

فإن المرء لايعيرها اهتماماً
وإنّما في الغالب ينتبه لتقاسيم القبح .

إنني أتذكّر جيداً كيف هدمت
كان ذات ربيع... وكنت حينها
عند عائلة تترية... تقطن على مقربة...
لقد رأيت من خلال النافذة تلك الكنيسة الإغريقية...
كل شيء ابتدأ مع الحديث بالتترية
ثمّ تداخل مع الحديث دويٌّ ما
امتزج الدويُّ بالحديث
وسرعان ما طغى الدوي على الحديث
فإلى حديقة الكنيسة دخلت حفّارة
علقت على قبضتها ثقلاً كروياً...
وهكذا بدأت الجدران تستسلم بهدوء...

إنه لمن السخرية حينما تكون جداراً ولاتستسلم
حينما يقف أمامك من يحمل معوله...
فهذا يعني أن قبضة الحفارة ليست
سوى شيء ميّت ، أو لاشيء...
فليس من اللائق في عالم الجماد

كيل الضرب للآخرين...

وأخيراً جاؤوا بشاحنة وجرّار...

وفي ساعة متأخّرة جلستُ أنا على الأنقاض .

وعلى انقاض المذبح تثاءب الليل...

بينما من خلال الثقوب في المذبح

كنت أنظر لقطارات الشوارع المنطلقة بكسل...

ولقناديل الشارع...

وهكذا... فما لايمكن للمرء

أن يشاهده عند زيارته لِلكنيسة

شاهدته أنا من خلال المذبح .

في وقت ما... ، حيث لاوجود لنا على هذه الأرض...

وبالضبط بعدنا... وفي مكاننا...

يحدث شيء ما شبيه...

وسيصيب من يعرفنا الرعب...

لكن... من يعرفوننا قلة...

وهكذا ستترك الكلاب آثار براثنها

على الأماكن القديمة المعروفة ، معتمدة على ذاكرتها القديمة .

السياج أزيل منذ وقت طويل...

لكنهم يحلمون بسياج...

بينما أحلامهم تشطب اليقظة

قد تحتفظ الأرض بذاك العطر...

لكنّ الإسفلت لن يحتفظ برائحة الكلاب...

ثمّ ماذا يعني لهم هذا البيت القبيح...

فعندهم هناك حديقة صغيرة... لكم : حديقة...

لكن ماهو واضح جداً للبشر...

لايثير اهتمام الكلاب

وهذا مايسمّى (وفاء الكلاب)

وإذا ماأتيح لي الكلام بجد

عن سباق الأجيال المتواصل...

فإنني أؤمن فقط بذاك السباق...

بل الأفضل أن أقول...

بالذين يشمّون الرائحة .

ثمّة قليل من الإغريق في (لينينغراد)...

بل... إنهم عموماً قلة خارج اليونان...

بل هم من القلة ، بحيث

لاتُمْكنهم حماية العقيدة...

وهم لايجبرون هنا ، على الإيمان

بما نؤمن به...

لكن يجب الإقرار بشيء واحد...

على الأمة أن تعمل بالصليب...

أمّا عن حمل الصليب فهذه حقيقة أخرى...

لقد كان لديهم واجب...

لم يتمكّنوا من إنجازه

ففي الحقل الذي لم يحرث بعد أن نمت الأعشاب...

«أنت ، ياناثر البذور ، حافظ على محراثك...

أمّا نحن فسنقرّر متى سيكون وقت الحصاد »

لكنهم لم يحافظوا على محاريثهم

هذه الليلة أنظر من خلال النافذة

وأفكّر الى أين وصلنا ؟

وعن أي الأشياء ابتعدنا...

وعن الأرثذوكسية أم الهيلينية ؟

والى أي الأشياء اقتربنا ؟ وماذا تخبيء لنا الأيام ؟

ألا ينتظرنا مصير جديد ؟

وإذا ماكان الأمر كذلك فما هو واجبنا الجماعي ؟
وأي القرابين علينا أن نحمل اليه

١٩٦٦

التمثال

لقد نصبنا تمثالاً...

في نهاية شارع طويل...

وسط ساحة عريضة...

تمثال...

يمكن نصبه في أي مكان...

حيث يمكن تغيير حجمه حسب الطلب

لقد نصبنا تمثالاً...

ليس له مثيل مطلقاً .

عند قدميه

نصبنا سريراً...

وإن لم يعترض ذوو السلطة

فسنزرع أمامه حديقة صغيرة...
حيث سيلعب الأطفال هناك...
بمواجهة شمس بدينة ، معتّمة الصفرة
وسيعتقدون بأن التمثال...
هو لمفكّر معروف
أو لموسيقي... أو جنرال .

وعند قدميه بالضبط ، سأقف
أضع باقة ورد طرية

لقد نصبنا تمثالاً...
سيحتمي بظله سائقو السيارات...
وفي الحديقة الأمامية سيلتقي العشاق

لقد نصبنا تمثالاً...
سنمر من أمامه عجلين من طريق ذهابنا الى العمل
حيث سيقف السواح...
ليلتقطوا صوراً للذكرى
وفي عتمة الليل نضيئه بالأنوار الكاشفة...

لقد نصبنا تمثالاً للكذب...

الأسماك في الشتاء

في الشتاء تعيش الأسماك

قاضمة فقاعات الهواء .

وحين تسبح شتاءً

ترتطم رؤوسها بالجليد .

وهناك في الأعماق...

أسماك...أسماك...أسماك

حيث تسبح شتاءً

تبتغي الفرار .

إنها تسبح بلا ضوء...

فالشمس تبدو باردة منكسرة...

إنها تسبح حتّى الموت
على طريق الأسماك الأبدي .

الأسماك لاتبكي
حين ترتطم رؤوسها بالجليد
إنها تتجمّد من شدة برودة الماء...
وكذا عيونها الباردة...

الأسماك صموتة أبداً...
فهي لاتستطيع الكلام...
لذا فإن كتابة قصيدة...
لاتعنيها كثيراً
لأنها تبقى حبيسة الحنجرة .

الحديقة

كم أنت مقفرة خرساء ، وكم شفافة أنت...
وكم يحكم الخريف بخجل!
حيث تتهاوى الأوراق ببطء الى الأرض...
متأرجحة في جاذبية السقوط .

كم خرساء أنت! أسيكون قدرك
مستفزاً من قبل حظّي العاثر
من الثمار التي تغادرك ،
والدوي الذي يعزف لك ، لاكما تدوي الأجراس الثقيلة...

أنت أيتها الحديقة الكبيرة ، يا كلماتي
التي تُهدي الجذوعَ حلقاتٍ ، ولحقيقتكِ حلقات

حيث من خلل الأغصان المجنونة...
أدخل في الورقة الى ليل البذرة .

كم ستحتاجين من الأشجار العارية ،
حتّى الربيع القادم ياروحي البائسة ؟
فكلّ ثمارك قد قطفت...
ولم يبق شيء سوى فراغك...

لا ... لنرحل... لنرحل...
يجب أن نرحل بعيداً...
لتحملني قاطرة كبيرة...
فطريقي على الأرض
هو نفسه طريقك السماوي...
اه كم يشبهان بعضهما...
ويا لإلتفافهما حول بعضهما...

وداعاً... الفترة طويلة ؟ إلى الأبد
احتفظي لنفسك بصمت الفجر إذاً
أيتها الحديقة الكبيرة...
يامن تنثرين السنوات
على قصيدة الشاعر المرة .

الكتاب

«أرسلي إلي كتاباً ما ، ذا نهاية سعيدة!»

ناظم حكمت

وأخيراً يجد المهاجر سقفاً له
ويثأر الفتى الأشقر من الوغد...
بينما ينظر الفلاح الى الأشجار ، غالقاً باب الحديقة
على الصفحة الأخيرة من الكتاب
ذي النهاية السعيدة

كواكب السماء تنهمر على الصمت...
على النوافذ المغلقة ، على الأهداب الرصاصية
... في الفصل الأول تلصق الأشجار نفسها ،
صامتة . بالنوافذ... بينما في المستشفيات
يشدو المرضى في النوم مثل الطيور .

أحياناً تنتهي الروايات في منتصف النهار .

يفتح العارف النافذة...
بعدما يكتشف شيئاً...
ويختفي المهاجر وراء التل...
بينما تتجمّع بقايا الأبطال في فرصة منتصف النهار...
الاقتصاد يثبت أقدامَهُ...
بينما يترك علم الإجتماع يأسه...
وأمام الحانات الأنيقة تتلألأ السيارات المقفلة .
الحروب انتهت ، الأجيال تكاثرت...
لذا تستطيع كلّ امرأة
أن تجد لها رجلاً...

الرؤوس الشقراء تؤكّد الفرق
بين الخير والشر .

كلّ الأشجار تغطي الفلاحين بظلالها عند الظهيرة...
وكل الطائرات تعود لمطاراتها بسلام...
بينما يرى قبطان السفينة البر بوضوح

أمّا الوغد ، فمن حسن حظه ،
أنّ كلّ شيء مرَّ بعيداً عنه .

... وإذا ما امتنع شخص ما في فصل ما عن السكوت...
وهذا ماجاء في الفصل الثلاثين... فإنه لايمكن
الاستماع لشيء...

الشبق ، التفاؤل الاجتماعي
الشعارات القادمة من القصائد الغنائية
والمواويل والأغاني الشعبية
... إنها حكاية ، شبه بوليسية ، تسمّى الحياة .

وإذن... أرسلي إليّ هذا الكتاب ذا النهاية السعيدة .

ذكريات

بدأت السماء البيضاء تدور...

والأرض الرمادية تصرخ تحت الأحذية...

يساراً ثمة أشجار ،

وعلى اليمين

يمكن للمرء أن يرى مياهاً

ضفافها من الخشب والحجارة .

إنني أسحب قدمي ، منتزعاً إياها ، من المستنقع...

ومع أشعة الصباح تسطع لي الشمس...

فنحن نكتب الآن فصل الحقول الثامن والخمسين...

هل تذكره ثانية ؟

هل كانت البداية...!

دبروفولسكي مازال يعيش ، متسكّعاً ، محملاً بالتحايا
وأنا لاأفهم عن القافية (الداكتولية) إلا قليلاً...
نحن نكتب فصل الحقول الثامن والخمسين...
بينما أنا في طريقي الى البحر الأبيض .

الأنهار تجري نحو الشمال ،
والأصدقاء يبحرون العبّارات...
الليلة البيضاء تتلألأ فوقهم كالأصداف...
إنني أبحث...
إنني أخلق من نفسي إنساناً...
وهكذا نطأ ساحل البحر .

لقد مسّتنا ريح البحر المزرقّة...
نحن نقف عند البحر...
الأرض تتحوّل الى بحر...
إنني أترك ذراعي تغوص...
إنني أرى...
بينما يجيء البحر إليّ بلونه الأبيض .

من يوميات
فيديا دوبروفولسكي

نحن ننطلق كي نعيش...

نقرأ أو نكتب الشعر...

ننظر الى النساء الجميلات

اللواتي يوزّعن ابتساماتهنّ على العالم...

من على أغلفة المجلات المصوّرة .

وفي طريقنا الطويل عند عودتنا

الى البيت من المدينة...

متجمّدين في قطار الشارع المنزلق ببطء...

نفكّر بالأصدقاء...

نحن ننطلق كي نعيش...

أحياناً نرى أشجاراً...

لها أذرع سود عارية...

حاملة ثقل السماء...

أو قد سقطت تحت ثقل السماء...

حيث الليل يبدو مثل الأرض...

نرى أشجاراً...

مقطّعة الأوصال على الأرض

نحن ننطلق كي نعيش...

وكنّا مع الذين كنتَ تتناقش معهم طويلاً...

عن الفن الحديث ،

أو مع من جرعت البيرة...

بالكاد نتذكّرك...

نحن نأسف على أنفسنا

على ظهورنا المنحنية والمقوّسة...

وقلوبنا الملأى بالحماسة ،

تلك التي كان حضورها سيئاً

في الطابق الثالث .

ذات يوم...

ستلمُ بالقلب مصيبة ما...

سيكون أحدنا بلا شك...

إذ ن...

وعلى بعد ثمانية آلاف كيلومتر الى الغرب منك...

وعلى الإسفلت القذر...

تسقط كتبه على الأرض...

وسيكون آخر مايراه...

إثني عشر وجهاً قلقاً...

قطعة من جدار...

خرقة من السماء معلّقة على الأسلاك...

سماء كتلك التي سقطت على الأشجار...

تلك التي نتنبّه اليها أحياناً .

موشّحات جديدة لأغسطس

١.

منذ الثلاثاء كان أيلول بدأ...
لقد هطل المطر طوال الليل ،
فالطيور هجرت أعشاشها ،
إلا أنا ، فقد قبعت وحيداً
متظاهراً بالشجاعة...
حتّى إنني لم ألتفت متتبّعاً أثرهن...
قبة السماء الزرقاء باردة محطّمة
والمطر يسد المنافذ على النور...
إن الجنوبي ليس مقصدي .

٢.

نحن نحيا مدفونين في أجسادنا ،

وإنّا هنا في موسم اختمار الغسق...

حذائي يشق الأرض...

(في الأعالي يهدر الخميس صاخباً)

أمّا العيدان الموطأة فتنتصب ثانية...

كأنّما لم يهزّها الألم...

أمّا غصون الصفصاف...

فتغرز رؤوسها الوردية في المستنقع ،

هناك حيث رفعت الحراسة...

مدمدمة وهي تتأرجح للأسفل...

ملقية بعش الطائر...

.٣

اطرق ماشئت ، طبطب ، إرغِ وأزبد ،

وتميّز غيظاً...

فأنا لاأعجّل من خطوتي...

انبئك ياهذا... أطفيء الشرارة وأخمدها .

إنني أفرك كفّيَ المتجمّدتين بفخذيَ

مرتحلاً من رابية الى آخرى...

بلا ذاكرة ، لكن على إيقاعٍ ما...

أطرق بخفيّ على الأرض الحجرية

ثمّ أنحني على نهيرٍ أسود...
محدّقاً برعب .

٤ .

ثمّ ماذا يعني ، إن كان ظلٌّ من الجنون رقد في عينيّ ،
وتسرّبت الرطوبة لذقني ، وقبّعتي...
ـ المنسدلة على الجانب ـ والمكللة بهذا الغسق ،
بدت مثل خطوط تنفر الروح منها...
فأنا لاأسعى بعد الآن من أجل القبعات...
الأزرار ، الياقات ، أو من أجل حذائي ، أو أكمامي...
لكن...آه...
لو ينبض القلب ولو مرّة...
كاشفاً أنني أليق بشيء ما...
كأنّما الزمهرير الذي يسحق العظام
إنهالَ ساقطاً على صدري...

٥ .

الماء يشقشق أمامي...
ويتمدّد الصقيع على شرم شفتي...
وإلا لنطقت سائلة : أهذا وجه

أم أرض زلزلت ؟

ضحكاتي الرنّانة تقلق عند الغسق
ذلك الدرب المعبّد بجذوع الأشجار...
مطر عاصف يهشّم الظلام .
وهيئتي الأخرى ،الشبيهة بالإنسان ،
ولّت هاربة من جفنيّ المتورّمين...
إنه يصفق الموج تحت صنوبرة...
ثمّ تحت صفصافة...
ويتداخل مع مثيل له...
لكنه لن يتوارى عن ناظري أبداً...

٦.

أطرق ماشئت ، نق ، وأقضم الجسر المتعفّن...
دع عنك أن المستنقعات التي تلتف حول مقبرة القرية...
تمتص الألوان من صلبان القبور...
فرغم هذا فإن أطراف الأعشاب في المستنقع
لاتضفي ولو شيئاً من الزرقة...
ومداخر الغلال...
تغمغم وسط الأوراق الكثيفة

فاغرز الجذور من أعماق التربة بعمق...
وأيقظ في أعماق الأرض
وفي أعماق صدري...
كلّ الأشباح وكلّ الموتى...
ثمّ دعهم يهرولوا بنزق هنا وهناك...
بين المزارع باتّجاه القرى المهجورة...
ليلوّحوا للأيام الزاحفة...
مثل قبّعة فزّاعة الحقول .

.٧

هناك على التلال ، تحت السماء الخاوية
بين الدروب التي لاتؤدّي إلا الى الغايات...
تنأى الحياة عن نفسها قليلاً...
وترنو بدهشة للأشكال الصاخبة حولها...
أمّا الجذور فتتشبّث بحذائي...
وتنطفىء الأضواء في القرية القريبة...

وهكذا أرحل في أرض اللا أحد...
لأستأجر مسكناً عند اللاوجود...
بينما تنزع الريح كلّ دفء عن يدي...

وتصب عليّ الماء من جوف غصنٍ ما .
أمّا السبيل الضيق فيلطّخ بالوحل .

.٨

فهنا ، وكأني لست موجوداً...
أقبع في زاوية ، على جانب ما...
العيدان بعد الحصاد تنتفض وتقف...
مثل شعر على جسد ميّت...
وعلى عش الطائر الملقى على العشب...
جلبة وصخب لجيش من النمل غاضب...

إن الطبيعة تنكّل بمن تهوى...
غير أن وجهها خلال هذا ، رغم أشعة الغروب ،
يبدو قاسياً متجهماً رغماً عنها...

إنني أقبض على حواسي الخمس جميعها...
وأهرب عن الغابة بعيداً...
لا أيها الرب... ثمّة حجاب على عيني
فأنا لاأود أن أكون قاضياً...

وإذا ماقدّر لي ذلك ـ لسوء حظّي ـ
ولم أقو على هذا الحمل...
فأقطع كفي ياإلهي...
كما يقطع الفنلنديّون كف السارق .

٩.

أيها الصديق (بوليدفيك)* ،
كلّ شيء هنا يعوم بالتلوّث
لن يسمع أحد من فمي أية آهة...
فها أنني أقف ومعطفي مفتوح...
والعالم يتسرّب للعيون...
من خلال غربال...
إنه غربال اللافهم...
إنني كالأصم... ، إنني أيها الربّ كالأعمى...
إنني لاأسمع الكلمات ،
والقمر يضيء
بشدة عشرين واط بالتمام ، ثمّ ماذا...
فأنا لم أدخل دورة في السماء...

---

* بوليدفيك : في المثيولوجيا الإغريقية هو أحد التوأمين من أبناء زفس وليا ، (الأول بوليدفيك الخالد والآخر كاستور الذي قدّر له أن يموت كالبشر) .

لمعرفة العلاقة بين النجوم وقطرات المطر...
فليحمل الصدى للغابة ،
لا الأغاني ، وإنّما السعال .

١٠.

أيلول ، ليلا ، لا سمير سوى الشمعة...
لكن من خلف كتفيّ يطل ظل...
إنه يتطلّع الى أوراقي ، وينبش الجذور المقتلعة .
بينما يبدو طيفك في الممرات...
يهمهم ويغرغر بالماء...
متبسّماً برقة وتألّق نجمة...
للأبواب المشرّعة على آخرها .

١١.

يعتّم الضوء فوقي شيئاً فشيئاً...
الماء يمحو أثري...
نعم...
إنّ قلبي ينبض شوقاً اليكِ...
لذا فإنه ينأى بعيداً...
وصوتي يرن بارتباك ولحن...

أحسب أن هذا قدري...

هذا القدر غير المتعطّش للدم...

لكنه المندهش من إبرة عمياء...

وإذا ماانتظرت ابتسامة ما... فمهلاً...

إنني أبتسم...

والإبتسامة تحلّق فوقي...

إنها أثقل من غطاء قبر أبدي...

وأخف من دخان يتعالى من فوهة مدخنة...

١٢.

أهذا أنت يا (اويتتربا)* ؟

الى أي المجاهيل وصلت ؟

ماذا أرى هنا تحتي ؟

ماءً وعشباً ، وعساليج أحد المروج...

كلّها منفيّ وملويّ كحدوة حصان...

ربمّا هذا إذن

من علائم الحظ السعيد!

أمّا كيف لي أن أبدّل إيقاع خطوي...

من الرقص السريع الى المشي السوي...

* (اويتتربا) : إحدى آلهات الشعر في الميثولوجيا الإغريقية ، مختصة بفن الإيقاع .

دون أن أروّض نفسي...

فهذا ما لاتعرفينه...

لاأنت...

ولا أختك (كاليوپا)* .

١٩٦٤

* (كاليوبا) : إحدى ألهات الشعر في المثيولوجيا الإغريقية ، مختصة بالشعر الملحمي . (م)

التلال

لقد أحبّا الجلوس على قمة التل معاً
حيث كانا ، من هناك ، يطلان
على الكنيسة ، الحدائق والسجن .
من هناك كانا يريان
أدغال الطحلب في قاع البحيرة .
ونعال الصندل الملقى على الرمل .

كانا يحتضنان أرجلهما بالأذرع
حينما نظرا الى الغيوم
بينما عند دار السينما
كان المقعدون ينتظرون الشاحنة...
وعلى التل تلألأت صفيحة ،

بالقرب من آجرة ملقاة
وعلى القمة الوردية لبرج المصرف
هبط غراب ناعقاً .

لقد مضت الشاحنات ، عابرة الجسور الثلاثة ،
الى مركز المدينة حيث الحمامات البخارية...
وبدأ ناقوس الكنيسة يقرع ،
متوَجاً طقوس زواج عامل الكهرباء ،
بينما هنا على التل كان الهدوء مخيّماً
أمّا النسيم فقد ألقى عليهما نضارة
ورواء...

فهنا لاصفّارات تنبيه ولاصراخ
سوى طنين البعوض...

لقد كان العشب موطوءاً .
عند موضع جلوسهما الدائم
بينما بقايا طعامهما
لوّث المكان بآثار سوداء .
لقدكانت الأبقار تلعق هذه الآثار دائماً ،

الجميع كان يعرف هذا ،

هما فقط اللذان كانا يجهلان .

أعقاب سجائر ، عيدان ثقاب وشوكة طعام

كانت مطمورة في الرمل...

وفي البعيد لمعت زجاجة سوداء

وجوارب مهترئة...

وبالكاد كانا يسمعان الخوار

عندما نزلا باتّجاه الأشجار

مفترقين بصمت

مثل ما كانا جالسين على القمة .

لقد انحدرا على السفح بانطلاقة متفاوتة...

لكنهما وجدا نفسيهما جنباً الى جنب

كانت الأشجار تتداخل أمامهما

وتفترق أحياناً...

لقد تزحلقا على العشب...

وأومض الماء بين الأحجار...

لقد وصل أحدهما الى السبيل...

أمّا الآخر فقد وصل الى البحيرة .

كانت ثمّة أعراس...

(يبدو أنهما عروسان)

فها هي ذي القمصان والثياب المزركشة...

تتألّق على العشب...

بينما توقّفت شمس الأصيل...

لتجذب السحب لنفسها

وتصاعد الضباب من الأرض

كما تعالى قرع النواقيس .

لقد أنَّ أحدهما متبعثراً

وتأوّه الآخر من شدّة الدخان...

لقد نزلا كلاهما

عن سفحين متباينين من التل...

لقد انحدرا من جهتين مختلفتين...

غير أن المسافة بينهما تمدّدت أكثر...

وأعولت الرياح صارخة بهما

بصوت تقشعر منه النفس .

فجأة...

تمايلت الأجمة...

وتفرّقت الأشجار عن بعضها بغتة...
كأنّما هبّا من غفوة...
مليئة بالكوابيس والرؤى الأليمة...
لقد تفرّقت الأشجار مولولة...
كأنّما الأرض قد انشقّت
وأمام كل منهما وقف إثنان
مدجّجين بالسلاح .

لقد شجّت أحدهما بلطة
فسال دمه ملطّخاً ساعته اليدوية...
أمّا الآخر فمات للحظتهِ
إذ توقّف قلبه فرقاً ورهبة...

أمّا القتلة فقد سحلوا الجثّتين الى الأحراش
(كانت أيديهم ملطّخة بالدم)
لقد ألقوا بهما في البحيرة
حيث التقيا هناك ثانية .

وما أن اخترق العروسان الجموع
وجلسا على المنصّة...

حتّى سعى الرعاة الى الساحة
معلنين النبأ الفاجع .

وهاهو ذا الشفق قد حلّ
ليبتلع قطعان السحب الكثيفة
وهناك عند الأجمة ، بين الأشجار
كانت الأبقار تلعق الدم بنهم .

لكن هاهو ذا عامل الكهرباء ،
يهرع مع صهرة الى السفح ،
الى حيث الأجمة ،
بينما وقفت عروسه بغيظ
وحيدة...
حاملة باقات الورد .
ولم يبق هنا سوى العجوز
متدثّرة بإزار...
فقدهرع الضيوف الثملون جميعاً
راكضين الى التل .

لقد هُصرت الأغصان ، والتوت تحت الأقدام

فالراكضون كانوا في ذهول ،

كالممسوسين...

ليس هنا سوى الأبقار وهي تثغو...

وهاهم ينحدرون بعجل الى البحيرة...

وهنا اتّضح المشهد بكامله...

(لقد كانت وغرة)

ففي القاع حفرة

معتّمة تفغر فاها ، كأنها بوابة للظلام .

من سيخرجهم من هناك

من يغوص لأعماق البحيرة ؟

فالموت

مثل الماء الذي يحتضنهما

ومثل الماء الذي يملأ جوفيهما .

الموت ،

في كل كلمة تقال...

في جذوع الأشجار ، وفي الغصون الملتفة...

الموت في الدم المراق...

الموت يسري في عروق الأبقار...

الموت في هذه المطاردة اللامجدية...
(كأنّما يبحثون عن لصوص)
فبعد الآن سيكون أحمرَ
حليبُ هاتيك الأبقار ،
ومن مقصورة حمراء ، حمراء ،
مع الحمر ، على الدرب الأحمر
ومن صفيحة حمراء ، حمراء
سيشرب الأطفال الحمر .

الموت في العيون ، وفي النظرات...
الموت يمسك بالتلابيب...
المدينة ستدفع ديّة هذه الجريمة...
فالموت «تركة» مشؤومة جداً
إذ يجب انتشال الجثّتين من البحيرة...
ولكن كيف يمكن درء هذا الشؤم
أفي يوم العرس تحدث جريمة
ويمسي الحليب أحمر ؟

الموت ليس هيكلاً عظمياً
محني القامة...

الموت هو هذه الأجمة ،

حيث نقف جميعاً...

إنه ليس نواح النادبات

لا ولا شريط الحداد الأسود ،

الموت هو نعيق الغراب الأسود

فوق برج المصرف الأحمر .

الموت هو المكائن كلّها

إنه السجن والحديقة... .

الموت هو هؤلاء الرجال

الذين يرتدون أربطة عنق...

الموت هو الزجاج في حمام البخار ،

في الكنيسة ، في البيوت المتجاورة...

الموت هو كلّ شيء معنا...

طالما نحن لانراه .

الموت هو قوانا...

إنه جهدنا وعرق جباهنا...

الموت هو أشواقنا...

هو روحنا وأبداننا...

نحن لن نذهب الى التل ثانية...

ففي مواقدنا تتّقد النيران

لا...

ليس نحن من لانراهم

وإنّما هم لن يرونا بعد الآن .

* * *

ورود الجوري ، إبرة الراعي ، الزنبق ،

عود الصليب ، الليلك ، السوسن ،

ـ على قبريهما المشيّدين من الخارصين ـ

الجوري ، إبرة الراعي ، النرجس ،

النيلوفر ، وأوراق الحناء ،

عطور حادة ووحشية ،

زهرة المنثور ، أعشاب خصية الذئب ، زهرة النجمة ،

الجوري وباقات من الزنبق...

أرجو أن تحمل الى الضفة الأخرى...

إنّي استودعهما السماء...

ألقوها في النهر ، في النهر...

وسيحملها الى الغابة...

الى القنوات المشجّرة السوداء...

الى بيوت الغابة المعتمة
الى مستنقعات الغابة الميتة
الى الأقاصي... الى تلال البلطيق .

التلال... هي عمرنا
ذاك الذي نطارده غافلين...
التلال ـ هي مئات الشوارع
التلال خنادق وأخاديد
التلال هي الألم والكبرياء...
التلال هي أقاصي الأرض
فكلّما ارتقيتّها صاعداً...
امتدتْ أمامك الى ما لانهاية .

التلال هي معاناتنا...
التلال هي شوقنا الأبدي...
هي الصراخ والبكاء
يمضي ويأتي ثانية...

الضياء والوجع الأبدي ،
غمنا ورعبنا ،

أحلامنا وهمومنا

كلّها في أدغال وأجمات هاتيك الجبال .

التلال مجد خالد

يدعى حقاً في معاناتنا...

التلال

إنها أعلى منّا...

فقممها تبدو شامخة أبداً ،

رغم هذه العتمة الدامسة .

في النوم واليقظة

نمضي نحن باتّجاه الأدغال ،

الموت هو البراري المنبسطة

أمّا الحياة فهي التلال ...التلال

١٩٦٢

إسحق وابراهيم

ـ لنمضِ يا اسحق ، لماذا توقفت ؟ لنمضِ
ـ سآتي حالاً...
ويغطس الجواب في لجة الأغصان المبتلّة...
تحت وابل المطر الليلي المدرار...
هناك حيث تنطفىء الصرخة .

في اللغة الروسية يفقد اسحاق إيقاع اسمه...
لاظل له ، لاروح... (سهم في الفراغ)...
لاحفيف ولادمدمة بين الحروف ، التي
تضم بين جنباتها حرفين على الأغصان العارية...
ليس هنا غيره... فامشِ وابحث... وأصفر...
فليس هنا سوى قطرات ، فتات ، قلة .

اسحق ليس سوى ذبالة تلك الشمعة

التي هي كل من سمّي (اسحاق) من قبل...

غير أن الصوت يعود كصرخة...

ـ اسحق... اسحق والصدى من اليمين والشمال

ـ اسحق... اسحق وفي هذه الحظة تذبذبت الشمعة...

ليس هذا هو الأمر يا ابراهيم...

فالتلال ، الأدغال ، الأعداء ، وزحمة الأصدقاء ،

المقبرة ، الأغصان ، المعبد ،

وكل من سيُدعَون اليه فيما بعد...

سيكونون بلا جواب ، فكأنّما الصوت

قدالتصق داخل الدماغ بجدران حمر

حين فقد نبرته الصائتة...

وحينما تغيّر إيقاعه بغرابة...

ومن حينها ضاع هو ، تحت وابل السهام ،

وكجواب ، سرى خرس في الحنجرة . في الدماغ

وهنا لم تحترق الشمعة كلها وإنّما جميع الأدغال...

حزمة من أذناب... لِمَ ، إذاً ، ثمة دلو مليء بالشمع ؟

---

*يتلاعب برودسكي على كتابه اسم (اسحق) مرة بإشباع الألف ومرة بتخفيفها .

وفي الصحراء كان اسحق وابراهيم حافيين...
لليوم الرابع وهما يمشيان الى المكان الأجرد ،
يمشيان وحدهما بين التلال المقفرة...
التي تتموّج وتلين تحت أقدامهما كالعجين .
لكن ليس هنا سوى كثبان من رمال كثيفة
فيها أعشاب (لمْسُها يقطع الإصبع)...
لو كانت جذور لجفّت منذ أمد بعيد...
أعشاب تنمو مع الرمل ، أعشاب جوّالة
أعشاب شاحبة...
أعشاب لاتعرف الطراوة...
أعشاب مثل الرمل لاتعرف الرطوبة ،
طعمها قريب من طعم نبات السعد .

المدى رمل ، تلال من رمل ، براري من رمل
كثبان من الرمل لايمكن عدّها وحصرها...
بحر من الرمل ، وتحته ، في القاع ، ثمّة أرض...
لا... لا يمكن الإيمان بهذا... لايمكن أبداً .
تلال من الرمل تسمّى كثباناً
محاطة ببقية من سماء صحراوية .

ابراهيم يخطو وخلفه يمشي اسحق
في عمق المدى الصحراوي...
الشمس تغرب تاركة أشعتها على ظهر الأب...
الرمل يدور ، والريح تعصف
التلال ، التلال ، تلال بلا نهاية

ـ هل لدينا حطب يابني ؟
ـ ها هو شيء منه

موجةريح هبّت ثمّ رحلت لتنام .

مثل حوار طويل يخرس فجأة...
هي حبة الرمل المحمولة من الشاطىء... ،
شبر من بقايا أفكار ، بل من بقايا جمل...
لكن ليس هنا من شاطىء ، سوى آثار طفيفة
لعابري سبيل تشبه الرمل الساحلي...
ثمّ ليس هنا ، أشرطة غنائية ساحلية ولو متواضعة .

لا... هنا أعمدة معتّمة ، ملوّنة ، سود
هنا البحر من اليمين ، من الشمال... من الأمام ومن الخلف

أمّا المسافران فقاربان... قاربان
الماء يبتلع الأثر ، والسفينة تنهض...

ـ أحجر الصوان معك ياأبي ؟
ـ ها هو الصوان .

كان الظلام دامساً ، وغامضاً
وهكذا مال الإثنان وقدحا الصوان
مشعلين النار بين الخرق
وها هو ذا ابراهيم يخرج قربة من النبيذ المعتّق
أمّا اسحق فعاد حاملاً الماء من بئر قريبة...
ترى كيف يبدوان في هذه العتمة ؟

من الشرق جاءت الغيوم وغطّت قبة الفلك...
والريح أخذت تهزّ العاقول والحسك
وها هي ذي الجهة المعتمة تبدو كأنها
غابة سوداء هادئة الأشجار ،
بصيص اللهب بدأ يخمد كأنّما
ألقت وحوش الغابة بنفسها فيه
أمّا ظهراهما فقد حجبا ماتبقى من النور .

ها هما... ومن الأعلى الى الأسفل
تندفع الطيور نحو الرمل مجازفة بأجنحتها...
أمّا الغابة فتمتد ، وتبدو القمم سامقة أيضاً...
وعابرا السبيل مازالا يعومان . قاربين في بحر ،
إذ أن الكثبان تسحبهما للأسفل ، لقاع الظلام
فليس لهما إلا أن يضرما النار ثانية .

إنّي لأتذكّر أيضاً : كان ثمة جبل
بل كان ثمّة ممر...
تنحني أشجار الكرز المزهرة عليه من الجانبين كالأقواس...
ويغرق صباحاً في الضباب...
وكانت على السفح بحيرة ،
حفيف الأمواج وموسيقى (لارغو)*
وضجيج العشب يسمع عالياً .

الممر خالٍ ، فليس من أثر قط
سوى ظل الأوراق الراقد هناك دوماً
أمّا في الخريف فإنّ الأوراق ذاتها تسقط هناك .
الضباب يتلاشى ، وفي الأقاصي تلتمع الضفاف...

---

* موسيقى (لارغو) : موسيقى ذات إيقاع بطيء جداً ، والكلمة مأخوذة عن اللاتينية .

وفئران الغابة تقضم جذعاً ما أبيض...
ولكي تتفرس الأغصان في الرمل
تنحني اليه مُسِفّةً
كأنّما هي عطشى لمعرفة مصير الظلال
التي اندفنت في رمل الممر...
تتفرّس بتركيز كأنّما ترى الظل ينمو هناك
ممتزجاً بالرمل الى الأبد .

النحل يطن ، وتلتمع ضفاف البحيرة
ويطفو القمر بين عساليج الليل الناحلة...
بينما يبدو ظل ورقتين مثل رقم *(8)* ، وفجأة
يسقط في الدغل بسرعة مجنونة .

فجأة رأى ابراهيم شجيرة...
أغصانها الكثيفة انحنت الى الأرض
ومع أن الأفق يبدو أجرد
إلا أنه استبشر خيراً ، فهذا يعني أن مقصدهم قريب .
«هنا... ليس بعيداً» همست له الشجيرة
غير أن ابراهيم لم يعرها اهتماماً ، وخطا في الظلام
وهنا ـ لم يرَ اسحق أية إشارة ـ

رفع رأسه ونظر هناك
الى حيث تكشّفت جذور الأدغال الكئيبة
إن نجمة عشعشت بينها
وهناك خلل الجذور أوقدت ضوءها الشفيف .

وكان ثمة شيء آخر... ، ففي البعيد
كانت هناك قبضة من (أرض) طفت عند (الجذور) بغموض...
فاتّجها للاستراحة عندها...
إذ أن الدغل قد اختفى مع السماء...
وها هو ذا الآن على بعد خطوتين فقط
رأى الشجيرة (لقد داهم الحسد قلب اسحق)
ألقى الحطب ، قام... ثمّ أشعل ورقة بلا لون
كانت ملقاة على الرمل...
ويمكن القول حقاً بأن الشجيرة هي شبيهة بالكل
إنها مثل ظل السرادق ، مثل انفجار رهيب ، مثل وبرة الراهب ،
مثل دلتا النهر ، كالشعاع ، مثل عجلة محورها يميل الى الأسفل .
طالع من راحة الكف ، طالع من جسده بكل شيء
فمع نظراته الطليقة بدت أوداجه للعيان...
طالع من بين الملأ ، فكلهم ينتمون لأصله
وها هو بالصفير يضم صفوفهم ثانية .

طالع من راحة الكف ، طالع من مئات الأكف
(بجسده ، ذاك الذي ليس مليئاً بالكلام فحسب...
وإنّما هو هذه القامة ، وذاك العالم المحيط به)
حيث في الخريف تغطّيه الشموع... الشموع...

ـ لنمضِ سريعاً
ـ انتظر
ـ لنمضِ
ـ حالاً
ـ لنمضِ... لاتقف (تحت القبعة كما تحت سقف ما)
ـ هيّا... لنسرع (وتتوارى العيون)
ـ لنمضِ سريعاً... هيّا
ـ حالاً .
ـ ماذا قلت... إنني لم أسمع...

لقد طار من عشه ، إذ رأى في الظلام فرخة...
لقد خفق بجناحيه الأخضرين المنطلقين في الضوء
لقد انطلق ملطّخاً بالدم ، ذاك الذي يحيط بكل الأنحاء ،
ساعياً الى الهرب (رغم أنه طاهر السريرة)
لكنه لم ينطلق بكل جسده فحسب ،

وإنّما بكل روحه ، بكل دروبها الرحبة
المليئة بالحركة وبالرعشات...
إنها تتراصف منتظمة ، ما الذي في ممرّاتها ؟
إنها تتراصف ثمّ تستعجلُ الرجوع ثانية .

إنهما لايستطيعان هنا أن يتكاتفا
إنهما يضجران في هذه العتمة ، يتزحلقان قليلاً على الرمل...
يتلاصقان ثمّ يعجلان للنوم
يغطسان في الظلمة ، في رحابة المكان ، في الأصوات

أما من يظمأ ثمّ مايلبث أن يترنّح ساقطاً
فليس هو إلا الحطب والقش...
ومن جديد تصفر الريح فوقهما وتصرّ...
والمتعبان يتكئان على أوّل غصن...
وقد ألقيا برأسيهما الى الوراء بخشخشة وقرقعة...
هاربين باتّجاه عقدة اللولب المجهول .

الكل ظامىء للحياة في مملكة المشاعر هذه :
مثل أشكالهم الشبيهة بشجيرات الصحراء...
حيث يتلوّى الهواء هنا ، ويتأرجح بين عتمة الشجيرات

لكن الحياة تمر عابرة البسيطة كلها
فليست هيئة (المشاعر) وحدها ، خشنة ،
رحبة ، وناحلة... وأقوى مئات المرات
من (القوت) المتكدّس هنا .

ـ آه يااسحق... لماذا توقّفت ؟ لنمضِ

من الشجيرات ؟ ماذا ؟ الشجيرات ؟ إنها بلا جذور
ففي اسمها تكمن حروف كلمة كبيرة...
الـ (ش) من الغصن هوت ، والـ (ج) هوت أقوى...
والـ (ر) و(ة) رحلتا الى العالم الآخر
فعند (الشين) نما غصنان
وعند (الجيم) نما غصن
وهنا الحكمة : جاء وقت تعلّم الكلمة
على أساس هيئة حروفها .

ـ هيا يا اسحق...
ـ حالاً... أنا قادم... قادم

في أعماقه تعالى بخار ساخن

لذا فقد رفع كوز الماء الى فمه ليشرب
لكنه تعثّر... وانكسر الكوز...

خطا اسحق جنب ابراهيم ليلاً...
على الرمل بثوبه الطويل...
لقد بزغ القمر ، فكل خطوة تتلألأ
مثل الفضة على هذا العسجد الرملي...
تلال... تلال... تلال تمتد بلا نهاية
إذ لا يكبح العين هنا أي شيء...
كلّ شيء يترنّح... مثل الرمل... مثل ظل الأب...
عُواء مجهول يتسرّب من بين ثقوب السماء...
القمر يتلألأ... إنه يلوّن الآفاق بزرقة معتّمة...
الظلال تمتد... والريح تمر ولاتترك أثراً...

ـ اما زلنا بعيدين ياأبي ؟
ـ لا... بل نكاد نصل

هكذا أجاب ابراهيم دون أن يلتفت
من كثيب الى كثيب صعوداً ونزولاً...
على عجل يلقيان النظرات الى الجهات كلّها

إنهما يهذيان... أمّا الشجيرات فقد هوت ساجدة...
السكون يسود كلّ شيء... وهما يمضيان
أما لابراهيم فقد كان كلّ شيء واضحاً...
لقد وصلا... إنه يحفر بنعليه حفرةً
يمس العشب ويقيم طقوساً غريبة
إذن قرّرا المبيت هنا .

ـ آه منك يا اسحق... لقد تخلّفت ثانية ، أنا أنتظر
ثمّ رنا اليه... حتّى خيّل اليه أنه رأى الهواء...
ـ أنا آتٍ... لقد بدا لي أن الشجيرات هناك تتحرّك...
ـ هيّا...

وخطا ابراهيم مواصلاً المسيرة...

القمر يلتهب ، والسماء تتّقد بالنجوم الزاهية
التي ترنو لهما بصمت ، لكن ثمّة أزيز في الآذان...
لم يكن هذا سوى الهواء... نعم... إنه الهواء...
رمل وظلام... والشجيرات التي تهوي ساجدة...
التعب يلتصق بهما في كلّ خطوة...
الهذيانات تذهب... والوجوه لاترى مطلقاً

أمّا ابراهيم فقد ألقى بجزمته على الأرض .

إنهما يجلسان وبينهما الموقد
العيون تدمع ، فالدخان المتصاعد يلسعها...
والشرر يتطاير في رحاب الليل...
أمّا اسحق فإنه يكسر الأغصان ليطعم النار...
إنه يضغط بالأغصان على ركبتيه ، فالنيران بدأت تخمد
إنه يحاول جاهداً... وهاهو الأب يأخذه من يده
ـ اترك الحطب... إننا نحتاجه صباحاً
أطعم النار بالأعشاب

وها هو ذا اسحق ينهض على قدمين متعبتين ،
ليفتّش بين الكثبان حيث الظلمة بلا قاع أو نهاية...
إنه يتخبّط ويعشو ، وحيث أخذ الموقد بالإنطفاء...
أمّا الأغصان المتكسّرة فتهجس : لقد أدركها الموت...
فلم يبق سوى قليل من الوقت ، لقد فاتها زمن الخصوبة...
لكن فاتها أيضاً أنَ ثمة حملاً جديداً ينتظرهنَ...
فالأغصان المتكسّرة ليست إلا أحلاماً ميتة ،
رقدت هنا... على الرمل الدافىء... المضيء
لكن سيتعيّن عليها أن تشتعل ناراً

وبعد هذا الحمل الجديد ستصبح رماداً
بعد ذاك سيصبح الرماد غباراً...
ويتعالى كثيفاً... وفي الصباح تماماً
سيكون الإندثار ، الإختفاء والعدم...

بينما الأغصان تحلمُ في العتمة ، صامتة
حاملة «الخواء» بين طيّات هذا الليل الخاوي
يعود اسحق حاملاً العشب
بينما قبض ابراهيم بأصابعه على خرقة

ـ أعطني إياها... سأقطعها أوصالاً

وهكذا بدأت ذبالة النار تحيا...
وشيئاً فشيئاً أضيء المكان ، وذهب الخوف عن القلب ،
وفجأة هبّت نسمة فتعالت ألسنة اللهب...

ـ لِمَ حاجتنا إلى الحطب صباحاً ؟ سأل اسحق
ـ لإنجاز الذي جئنا من أجله . أجاب ابراهيم
يجب أن نقدّم قرباناً...
ألم ترَ محراباً هناك حينما ذهبت بحثاً عن العشب ؟

ـ ماذا يمكن أن يرى هناك ؟ لقد كان الظلام دامساً ،
حتّى لقد تحوّلت الى حبّة رمل من الرعب...
ـ على كلّ حال... هل تود أن تشرب شيئاً ؟

وها هو ابراهيم يضغط على القربة بكفّيه
ليندلق الماء في فمه...
بينما كانت عينا اسحق تحدّقان في الأعالي
حيث الضجيج واللمعان والثقوب

ـ كفى

واقترب من النار ، ماطاً شفتيه كالسكران
وسرى الدفء حاملاً كليهما الى النوم...
رفع اسحق رأسه في العتمة وسأل :

ـ وأين هو الكبش ؟

وفي هذه اللحظة منحت النار جبينيهما بريقاً غريباً...
وجاء الجواب (مثل صرخة)
ـ في هذه الصحراء ... يجد الرب كبشه بنفسه ،

إن الرب سيرعى الأمر .

النار في الموقد ، إنها تتّقد في عيني ابراهيم كالعقيق ،
العيون تلعب مع النار ، واللهب مع النظرات
النجوم تتلألأ ، والكل يسري نحو مملكة النوم...
وها هو ذا يقترب من اسحق

ـ الأضاحي شيء قديم ، إنه لعسير أن أوضّح لك...
إن الضحية... لاأدري... مَنْ... لكن...

كثبان الرمل تطفو على كلّ الجهات...
وكأنها شجرة ممحوّة المعالم...
الموقد يتّقد... بل... دخان ونجوم
كل شيء يرقد... السكون في كلّ مكان
إلا ابراهيم... فقد كان ساهراً
لقد نام اسحق غارقاً في الرؤى...
الأرض تتلألأ ، وهو عائم فوقها
النجوم تتّقد... في البعيد
أما ابراهيم فقد أوثق جسد اسحق...
وحمله الى حيث كانت النيران تتّقد...

الى حيث الحطب قد أعد...

وحيث ألقى باسحق عليه...

ثمّ قفل راجعاً... ألقى صوفاً في النار...

أشتعل بسرعة فمسّت النار يده...

وانتشرت رائحة كريهة في المكان...

أما ابراهيم فقد امتشق مديتهُ واقترب...

لكن لحظة إشفاق عابرة عصرت قلبه...

(إنها مديّة الخبز البيتية ذاتها)

ـ لقد حان الوقت ؟

وألقى بنظرة الى حيث استقرّت راحتاه

في إحداهما مدية وفي الأخرى فلذة كبده...

ـ الآن سأبدأ...

وهنا تجمّدت شفتاه ، وبالكاد تمتم

ـ شكراً أيها الرب...

وفجأة أطل من خلف الكثبان ملاك...

ـ يكفي هذا ياابراهيم...

فجأة تعرّق جسد ابراهيم وارتجفت يداه...
سقطت المدية على الأرض فحملها الملاك بخفة...

- كفى ياابراهيم... لكل شيء نهاية...
فالسماء مليئة بالرضى لأنّك لم تحنث بوعدك...
وجازفت بهذه التضحية وأنت أب...
لذا... لقد أوفيت بكلّ شيء... والآن...
لنعُدْ راجعين... الى حيث الجميع حزانى
ليرى الجميع بأن على الأرض السلام...
لنذهب الى حيث تلتمع الأنهار...
مثل نصل سكّينك الذي لم يحزّ عنق ولدك
الى حيث قطيعك ينتظر المرعى... الى خميلتك...
الى حيث حلمت بذلك اليوم في مثل هذه الساعة .

وأذكر أيضاً ، كان ثمة جبل
في أسفله انهار ومروج
وحيث يتصاعد الضباب صباحاً
ويتعالى صخب الأدغال على المنحدر دائماً...
ومجرى النهر يغنّي العشب عالياً...
وتهب الريح... تعصف بالأدغال

فتسقط الأوراق على الأرض الرملية
ثم تصعد ثانية الى الأغصان...
وحتّى بعد مرور حوْلٍ من الزمان لاتغيّر لونها...
والجذوع القوية تأخذ من السحب العالية ألوانها...
السحب القصبية تمنح ضوءها...
ونجوم الأحلام تتلألأ في عتمة الليل...
وقبة الفلك مزدانة بالكواكب...
بينما بين الأحراش تشقشق مويجات الجداول...
أمّا الضباب فيبدو في الليل كمجرى .

لنذهب الى هناك حيث تصمت الأشجار...
حيث لا أغصان جافة ، حيث
تبني الطيور أعشاشها بين العشب ، بينما
تنحني الغصون لتغطّي المواقد أحياناً...
أغصان حيّة...لكن عقلك يبدو كغمامة سوداء...
فافتح عينيك... انظر هنا الى هذه الذبيحة...
هنا كل شجيرة ـ انظر ـ تقف مثل إشارة
للسعي بين كثبان الرمل...
افتحْ عينيك ، شجرة السماء زاهية الألوان...
انظرْ هناك إنها تنظر كي تجيبها

أجبْ ياابراهيم أوراقها...

أجيها... أجبْني... ولنمض... »

وتعالت ريح...

ـ لنمضِ ياابراهيم الى أرضك

حيث الجسد والروح في الناس

حيث كلّ شيء حي ويغيّر اسمه لمئات المرات...

حيث كلّ شيء حي ويعيش في أسرة واحدة...

حيث كلّما تكاثروا تكاثَرَ الألم معهم...

حيث ظلالهم تقيّد أيديهم وأرجلهم...

حيث كل كلمة منهم ستكون إشارة...

تدعو لفكرة ما...

ستحيط بهم الأشجار وستلتهم الأعشابُ الأرضَ

بخطواتها... بينما ستتلألأ الغابات .

في اللازورد مثل ابراهيم واسحق...

لنمضِ... ستهدأ العاصفة الآن

كفى يا ابراهيم... لقد جُرّبتَ...

لقد أخذت مديتك ، فلم تعد بحاجة اليها...

ضوء الفجر البارد قد غمر الشجيرات

لنمضِ ـ إن اسحق يكاد يفيق من نومه

كفى ياابراهيم لقد جُرّبتَ... كفى
لكلّ شيء نهاية ، كلّ شيء قد وضّح... لننتهِ
لنضع نقطة النهاية... كفى يا ابراهيم
افتح وجهك... الآن تجلى كلّ شيء .

الخيام منتصبة ، عتمة الضأن في كل مكان
والسحب قد احتشدت ، فظلالها
تنعكس في البركة المجاورة...
المواقد يتعالى دخانها ، ومئات الطيور تحلّق طائرة...
الكلاب تتعارك ، فالعظام هنا وافرة...
العرق يتصبّب من الوجوه المحمرّة الساخنة
ومن كل الجهات تتعالى الأصوات...
الضأن على المنحدرات ، إنها قريبة من ظلال السحب .

إنهما يحبوان لملاقاة الشمس اليقظى...
والجداول تسقط من الجروف اللامعة...
النياق ترقد في الظلال متعبة...
المواقد تتأجج نيرانها ، والذباب يطير بهدوء
وبين زحمة المواشي تطن الزنابير...
الفؤوس تدق... ومن الجبل يطل راعٍ...

ها هي ذي الخيام تمتد في الوادي مثل بقع رقطاء...
فمن الشق داخلها تبدو قبضة أرض...
وفي الخارج ومن شقة الخيمة بدت ذراع امرأة...
وتسرّب الغبار والضوء الى كلّ الزوايا...
هنا في الخيام المليئة ببصيص الأشعة وبالشقوق...

لاأحد يعرف الشقوق كاللوح...
(لتكن أيّما لوحة... أيّاً كان أصلها ، لتكن أحسنها...
لتكن سميكة ، طويلة ، ضيقة)
وعندما يبدأ التنافر بين الحبال المبرمة
تتصدّع العتمة على اللوح الجاف...
فكل ما هو خارج الخيمة هراء...
فهراءٌ كلُّ ما هو خارج الخيمة
لأن القطران داخل الخيمة قد جنّ
فالجو خانق جداً .
إن القطران جف وتبخّر متسرباً الى الخارج
واتّجه نحو القطيع... الى حيث يسعى
أن يحس به أحد ما...
وتنغرز المدية (إنها تحز في العمق)
فتشعر أنها في قبضة قوة ما...

فمقبضها الخشبي ينحرف قليلاً الى الجانب
حيث ينشق الى نصفين...
وإذا ما أفلح هذا الظلام ، وهذه الذبالات
فإن هذه المدية المسكينة التي غدت عمياء فجأة ،
ستبدأ بالحز والقطع ثانية...

ها هي ذي كل الذبالات التي وسط الشجيرات الأليفة...
تتشابك ، تتصادم وتتجاور
واحدة منها تصرخ دائماً : إنني أنمو
وها هو ذا الهباء والغبار يتطايران
وفي الخارج ، كأن ثمة ثلجاً ينهمر...
المدخل في هذا البيت يتداخل مع جدرانه...
الريح الثلجية حاكت الألياف
من النظرة المبهمة ، وقفل المدخل الثقيل
غير أن المدية تبقى جارية طيّعة لسيدين :
الكف واللوح... ولأيهما الأقوى .

سبح الغبار في النور القادم من ثقوب الخيمة ،
وهناك بعيداً حيث تنوخ العيس
يواصل اسحق حواراً مع أحد الضيوف .

المواقد يتعالى دخانها ، ومئات الطيور تطير ،
الأغنام تثغو والبعوض يطنّ
العرق يتصبّب من الوجوه المحمرة الملتهبة
والخيام تتناثر في الوادي مثل بقع رقطاء...
القطعان تهذي ، والبيت الضريح قد بدا...
الجداول تخرخر والمويجات ترجرج العشب .

لقد ارتعش اسحق فها هو ذا يسمع
في الهواء نداء اسمه ثانية
إنه ينظر في الوادي ولايرى غير الخيام
وبعض أبناء الحي يتجول ، وجيش من السحب يأتي من الشرق
وحول المواقد ، كما عند الرقص ، تقعي الكلاب .

الشجيرات تتحرّك ، وها هو ذا يرى رابية صغيرة...
هنا تقف امرأته ، خلفها خيمة وقفار
وفي يدها غصن تين أخضر...
تهزّه وتنادي سيدها
ـ لنمضِ يا « رفقة »*

---

* (رفقه) : هي زوجة اسحق كما ورد في التوراة .

ـ لنمضِ يا اسحق... لماذا توقفت ، لنمضِ

ـ سآتي حالاً...

هكذا أجاب اسحاق من وسط الأغصان

الندية بوابل غزير من المطر الليلي

ـ لاتقف يا اسحق...

ـ لا... لا ... إنني قادم

ـ هل مازلت تذكر الدار التي نقصد يا اسحق

ـ نعم... نعم... سأجدها

ـ إذن لنذهبْ ... لاتتوقّف

ـ لاتقلقْ

ـ لنمضِ يا اسحق...

ـ انتظر لحظة

ـ لنمضِ

ـ حالاً...

ـ لنمضِ... لاتتوقّف ، أسرع

ـ حالاً...

ـ ماذا قلت ، إنني لاأسمع .

المطر يتساقط على الغصون كقرع طبل

وهناك مَنْ يبكي...

ـ من هناك ؟...

(لاأحد يجيب...)

ـ لنمضِ يا اسحق...

ـ انتظرْ لحظة

ـ لنمضِ...

ـ حالاً...

ـ لاتقفْ ، هيّا بنا (يولول المطر على السقوف)

هيّا... لنمضِ بسرعة

ـ حالاً

ـ ماذا قلت ، إنني لم أسمع .

المطر ينهمر بلا إنقطاع ، إنه يرتفع حتّى

جذوع الأشجار ويلطّخها بالسخام...

وفي الأوراق الربيعية شمس

أكثر ممّا ينبغي دائماً...

بينما في أوراق تموز تجد الصيف أشدّ وضوحاً

رغم أن العشب أشدّ شحوباً...

لكنّ الأرض تبدو أكثر وضوحاً ،

حينما يتعالى ظل الأوراق ويتمدّد ظل الجذوع...

إنها أشد وضوحاً ممّا هي في الضوء .

ثمّة قطار ينهب البراري بلا ضجيج
إنه يتّجه نحو اليمين على السكة .
ثمّ الى اليسار... صباحاً ... ليلاً... نهاراً...
وثمّة دخان بلا لون يتصاعد أعمدةً من الأرض...
وفجأة يبدو هناك مَنْ قفز واختفى داخله...
القطار يندفع بلا نهاية على شكل *(8)*
إذ على جانبي السكة ومن كل الجهات
تندفع أمواج من خلال الرقم *(8)*
كمراوح الطواحين ، صاعدة لاعنات السماء
وعلى أجنحة من أغصان سماوية
يندفع الى الأمام ، يداه ترى
وحزمة من الضوء تتسلّق التلال المجاورة .

ومثل هذه الحزمة الضوئية تكمن في أعماقه .
لكنه تحت وطأة انفعال ما يبخل بالوهج
إذ أن مصباحه أسير حلم ميت
إنه يطير في العتمة بحيث لا تُمْكن رؤية وجهه .
لذا فإن التلال ـ التلال غير الوهمية

والأمواج التي تتلاطم الى الأعلى والأسفل
تبدو مثل شعاع ينبث من مصباحٍ مستوٍ .

المطر يهطل بقوة... كلّ شيء يلتمع
حجاب على الكوة من أسفل الرتاج ،
والنافذة انحرفت قليلاً...
والميزاب المائل إلى الأسفل يلتمع
وزوايا البيت المبتلّة ترتفع شامخة
وثمة شمعة تحترق دائماً في ذات النافذة .

مطر بارد ينقر على الأطر الرقيقة
كأنّما في ذات اليوم تختلج الشعلة
المتوهجة تحت الماء...
إنها تشتعل رغم أنّ كلّ شيء ينحدر الى العتمة
برغم الأشياء المنحدرة الى العتمة
من أجل أن يمسي الضوء خفياً ومباحاً...
في هذه الكوة...
فهنا ، لامفر لي ، من هذه الظلمة
فالجدران الحجرية تصمت تجاه النوافذ المقابلة...
والبوابة مقفلة ، والبوّاب قد تعتعهُ السكرُ ،

والليل فراغ .

المطر يقلقلُ الرتاج الحديدي
الشمعة تتّقد وأطراف الأوراق يمكن رؤيتها
وخلف المقاعد انسابت النار مثل الماء...
ومزاليج الأمواج ، والمتاريس المعتّمة
وفي القاع ـ المفاتيح ـ مثل قناديل بحرية ،
جوقة إنشاد بحرية تغنّي المحاجن ، مقابض
الأبواب ، الأصفاد والبراغي...
إنه البحر وحده... البحر وحده .

كلّها تسعى لضونها في العتمة
تنادي نفسها (من خلال المطر ، اللوحة ، الآجر)
أتنادي نفسها ياترى ؟
لا ، مطلقاً... فهذا النداء المتواصل
هو من أجل أن تحترق فيه...
يجب أن تتجه الشموعُ... الى الشموعِ .

سور خشبي وثلاثة أقفال على الأبواب...
ليس من صدوع في السور ،

ومن هنا يتعذّر سحب المفاتيح...

ومن كلّ الجهات تسود غياهب الظلام...

أفتح النافذة... ستندفع الأمواج حالاً...

المزاليج تقرقع ومن السهل إقفالها

ورغم ذلك فهي تشتعل وتشتعل...

لكن لم يبق لها ما تواصل به الحياة .

أقبل ثعلب ، عيناه تلتمعان على زجاج النافذة

أمام عينيه زجاج... وهاهي نظراته تخبو كالأمواج...

إنه يتفرّس ، يوقد شمعة في القاع

ويلوّن ظل الجدار الطويل بالأصباغ .

أقبل ثعلب ، إنه يطل من خلف الأكتاف

إنه يصفر بخفوت... وفي صفيره يُسمع شيء ما...

وهنا تشتعل الشمعة...

وحول الشمعدان تحلّقَ النحل وتناثرت الأوراق...

في كلّ مكان نحل ، غبار وزهور

وفي قلب تلك اللوحة النحاسية

نقش لسلة مليئة بالثمار...

التي عند سبكها أمست أصغر من البذور

غير أن لسان الشمعة نسي

أن يطلقَ استغاثةً...

فها هي ذي الشمعة ترتعش محتضرةً في الليل...

مثل أوراق صيفية في غابة الخريف الخاوية .

١٩٦٣

ملحق

يوسف برودسكي

حوار عن اخماتفا... والشعر الروسي

اجراه الصحافي
والمؤرخ الموسيقي: فلكوف

مايشبه المقدّمه:

لفن الحوار خصوصية ، وبالمقارنة ، يبدو أنه قد تجذّر في الغرب ، أمّا في روسيا فإنه لم يظهر بعد ، إذ أن كتاب ليديا جكوفسكي الرائع عن (أنا آخماتفا) ، رغم وثائقيّته ، فإنه في المقام الأول لايعدو كونه يوميّات لليديا جكوفسكي نفسها...

القارىء الروسي [والعربي والشرقي عموماً- م] لم يتعوّد (الحوار) مع شاعره ، ولذلك أسباب عدة ، وأحد الأسباب هو تأخّر حرفية الأدب في روسيا (أي باعتباره مهنة ومصدراً للرزق ، فلقد كان الناس يستمعون للشاعر لكنهم لم يحترموه ، فمثلاً أصدر (إيكرمان) كتابه الشهير (أحاديث مع غوته) عام ١٨٣٦ وفي العام الذي بعده تمّ تأبين بوشكين ، وقد جاء في رثاء الشاعر (قضى نحبه وسط ميدانه العظيم) ممّا أثار غضب وزير التعليم الروسي حينذاك حيث علّق : أيها السادة ، لِمَ هذا الشرف العظيم ؟ هل كان بوشكين قائداً عسكرياً ، محارباً ، وزيراً ، رجل دولة ؟ إن كتابة الشعر لاتعني الدخول الى ميدان عظيم) .

وفي بداية القرن العشرين بدأ الوضع بالتغيير ، حيث أصبح للشعر سوق رائجة ، لكنّ الثورة قامت ، ومعها انقطع الحوار وعلى الرغم من أن التسجيل الصوتي كان موجوداً فإنه لم يبق لنا أي تسجيل صوتي لباسترناك ، آخماتفا بينما ازدهر فن كتابة الأحاديث والحوارات .

يعتبر (أحاديث مع غوته) أصل هذا الفن من الكتابة حيث لايزال محتفظاً بخصوصيّته في هذا المجال... وهناك قمة أخرى في هذا المجال وهي كتب الحوار الخمسة والذي أجراه (روبرت كرافت) مع سترافينسكي في السنوات الأخيرة... إنها سلسلة رائعة كان لها تأثيرها الواضح على ذوقنا الثقافي .

إنّ فن الحوار تبلور جمالياً مع الوقت ، ويمكن في هذا المجال تسمية (حوارات اللاجئين) لبرشت وبعض مسرحيّات بيكيت ويونسكو ، كما أن نجاح بعض الأفلام التي تعتمد حبكتها على حوار شخصين فقط يؤكّد بأن عامة الناس تستمتع بطريقة ومضمون الحوارات أيضاً .

لقد كانَ النبض الأول لبداية حواري مع يوسف برودسكي ، محاضراته التي كان يلقيها في جامعة كولومبيا عام ١٩٧٨ والتي كنتُ استمع اليها بانتظام... لقد أثارت فيّ هذه المحاضرات انطباعات غريبة .

لقد كان برودسكي يتحدّث في هذه المحاضرات عن الشعراء الذين يكتبون بالإنكليزية ، هؤلاء الذين أكاد لاأعرف عنهم شيئاً .

إذ كان يتحدث عنهم بطريقة جديدة جداً بالنسبة لي ، وكذلك في ما يخص الشعراء الروس ومن ضمنهم آخماتفا .

وكما يحدث عادة ، كانت ثمة رغبة عارمة تدفعني لعرض حوارات مع برودسكي على دائرة أوسع من الناس . لذا بدأت خطّتي بالعمل والتي كانت نتيجتها مخطوطتي (أحاديث مع برودسكي) والتي نشرت معظمها ضمن المنشورات الروسية خارج روسيا .

في ما يخص الفصل الذي يتحدّث فيه برودسكي عن آخماتفا ، أردتُ فيه تحقيق ثلاثة أغراض هي أوّلاً : حفظ وتسجيل أكبر كمّية ممكنة من المعلومات والتفاصيل والمنعطفات في حياة أخماتفا ومن أحاط بها .

ثانياً : ويبدو لي مهماً وممتعاً وهو استكشاف مختبر الشعر وتقديم النماذج الشعرية قدر الإمكان تلك التي تعكس صيرورة القصيدة (علماً أن هذه الموضوعات هي من الموضوعات التقليدية في الثقافة الروسية ، وبالإمكان مراجعة سلسلة تسفيتايفا (الشاعر) و(المنضدة) وكذلك مقالة آخماتفا عن (أسرار الحرفة) .

وأخيراً : أردت للقارىء أن يجلس مستمعاً لحوار شخصين ليسا أكثر من منفيين جديدين أحدهما شاعر والآخر صحافي ، ولقد ساعدني في ذلك أن رؤية برودسكي سجالية بشكل أصيل (حسب فهم باختين) وهذا واضح في شعر برودسكي ونثره ونصوصه الدرامية .

لكن هذه السجالية وضعت أمامي بعض الصعوبات عند تحضيري نص الحوار للطبع... فالأحاديث الطويلة التي سجّلت على أشرطة قمت بتشذيبها عند نقلها كتابة ثمّ عرضها على برودسكي نفسه . ويمكنني القول بأنني سأشعر بالإرتياح والإعتزاز إذا ماشعر القارىء بأن الحوار رغم كلّ التعديلات مازال محتفظاً بعفويّته .

فلكوف

• كثيراً ما اصطدمت بشيء هش يسمّى الذاكرة... تتحدّث مع الناس وتكشف أن هناك الكثير من الأحداث القريبة بدأت تذوب وآثارها تنمحي شيئاً فشيئاً... بينما في حديثي معك أود تثبيت بعض التفاصيل والخطوط المتّصلة بآنا اندريفنا آخماتفا... محاولتي استعادة هذه التفاصيل من اللاوجود .

•• بكل سرور إذا ما لم تنمحِ هذه التفاصيل دونما أثر يذكر ، لكن ببساطة أعلم بأنني لست في وضع يتيح لي الإجابة عن كل الأسئلة... فكل ماله علاقة بآخماتفا هو جزء من الحياة... والحديث عن الحياة يشبه محاولة القط لإقتناص ذيله... إنه صعب بشكل لايصدّق . لكنني أود أن أثبت هنا بأنّ كل لقاء مع آخماتفا كان بالنسبة لي معاناة رائعة... لاسيما حين تدرك جسدياً وروحياً بأنّك تلتقي بأفضل الشخصيات ، بإنسان ، نبرة واحدة منه تهزّك من الأعماق... فنبرة واحدة من صوت آخماتفا أو التفاتة واحدة من رأسها كافية لتتملك . بالنسبة لي لم يحدث هذا سابقاً مع أي شخص... ربّما لأنني كنت حينها فتيّاً . إذ أن مستويات التطوّر لاتعيد نفسها . فمن خلال الحديث معها ، عند شرب الشاي ، أو الفودكا تشعر بأنّك أصبحت مسيحياً وبشكل سريع... مسيحياً بكل ماتعنيه هذه الكلمة من معنى... وفي أسوأ الأحوال ستقرأ النصوص المطلوبة أو ستذهب الى الكنيسة . إن دور الشاعر في المجتمع يؤدّي في حدٍّ ما الى الطريق نفسه .

• لقد بدأنا الحديث عن الذاكرة ، لننظر الى الوراء... هل يمكن تقسيم حياتك الى مراحل ؟

•• لاأعتقد .

• ألم يحدث أن سألت نفسك مرة كلّ ثلاث سنوات أو خمس مثلاً أن يكون فصل معيّن من السنة مثمراً وناجحاً بالنسبة لك ؟

•• أتدري إنني لاأذكر متى ، أو قل لاأذكر إن كان جرى لي مثل هذا ، لقد فقدت العد... لاأعرف بالضبط... ربّما حصل مثل هذا عام ٧٩ أو ٦٩ ؟! لقد مضى وقت طويل على ذلك أليس كذلك ؟... الحياة تتحوّل بسرعة الى مايشبه شارع نيفسكي بروسبكت (في لينينغراد ـ سانت بتربورغ)... وفي أفق يسعى له الجميع وبشكل ثابت ، والخسارة ستكون الى الأبد .

• المشكلة هي أن اخماتفا تهتم بالتفاصيل في حياتها ، فلقد أولت

التواريخ اهتماماً خاصاً... وأذكر في هذا المجال أن شهر أغسطس (آب) اعتبر شهراً نحساً .

مرة أخرى اقتربت (الأشهر النحسة)

وليس بينها أي شهر غير ملعون

•• في ما يخص آخماتفا فإن ذاكرتها كانت قوية جداً وعجيبة ، فمهما كان السؤال ، سواء عن حدث ما أو شخصية ما ، فإنها كانت تجيب بدون أي توتّر ذاكرة السنة والشهر واليوم... إنها تتذكّر تاريخ الولادة والوفاة... وفعلاً كانت هناك لبعض التواريخ في حياتها أهمية استثنائية . أنا شخصياً لم أعر أية أهمية لمثل هذه الأشياء... أذكر مرّتين أو ثلاث مرّات حصلت لي أشياء لاتسر في نهاية كانون الثاني... لكن هذا كان مجرّد مصادفة... ففي ما يخص العلاقة بالتفاصيل ، بالتواريخ والدقائق كما يبدو لي فإن للأمر ارتباطاً باختلاف التربية . فلقد سعيت دوماً للانفصال عن الواقع وفي أسوأ الأحوال أن لاأضيع فيه ، وفي النهاية أمسى موقفي هذا غَرَزيّاً ، وطبيعي لهذا علاقة بغريزة الدفاع عن النفس... لكن هذا الدفاع عن النفس يتطلّب ثمناً... على كل حال فأنا لم أتعلّم (التذكّر) عند آخماتفا... إذا ماكان يمكن القول في أن (التذكّر) يمكن تعلّمه .

• متى تعرفت على آخماتفا ؟ وكيف ؟

•• لقد كان هذا ، إذا لم أخطىء ، عام ١٩٦٢ [وفاة آخماتفا ١٩٦٤]... حينما كان لي حينها اثنان وعشرون عاماً . (يفجيني راين) هو الذي أخذني معه الى بيتها الصيفي . والغريب أنني لاأذكر بداية هذا اللقاء ، حينها لم أنتبه أو أدرك قيمة الشخص الذي سأتعرّف عليه ، علماً أنها كما قيل لي امتدحت بعض قصائدي...

لكن بالنسبة لي لم يكن المديح ماكان يثير اهتمامي... وهكذا زرتها لثلاث مرات أو أربع في بيتها الصيفي مع راين ونايمان... لكن ذات يوم رائع ،

وأثناء رجوعي من عندها ، وفي القطار ، أدركت ـ صدّقني كأن ستارة أزيحت من على خشبة المسرح لتعرض المشهد ـ مع من بل ومع أي شيء كنت مرتبطاً . وبدأت استذكر حينها هذه الجملة منها أو تلك... هذه الإلتفاتة ، هذا التعليق أو النظرة... واتّضح المشهد... وبالرغم من أنني لاأعد ممّن كانوا في حلقاتها ، لكنني التقيت بها وبشكل منتظم وكافٍ . وذات الشتاء أجّرت بيتاً صيفياً في (كماروف) ، في الضيعة نفسها التي كانت تعيش فيها ، لذا كنّا نلتقي يومياً .

لم يكن الأمر له علاقة بالأدب فحسب وإنّما بالصلة الإنسانية نفسها ، تلك التي كنّا نتبادلها... وبالمناسبة... حدث ذات مرة مشهد رائع... لقد كنّا جالسين على الشرفة ، حيث كنّا عادة نفطر ونتعشى ونتحدّث... التفتت آخماتفا اليّ قائلة : «يوسف... أنا لاأفهم ما يجري... إن أشعاري لايمكن أن تثير إعجابك!)... طبعاً ارتبكت حينها ودمدمت بأنه على العكس من ذلك... لكن لحدٍّ ما معروف هو موقفي من أشعارها في البداية... أقصد حينما زرتها للمرة الأولى... إذ لم أكن أهتم بشعرها... بل يمكن القول بأنني حينما تعرّفت اليها لم أكن قرأت لهاإلا النزر اليسير... إذ كنت حينها كأي شاب سوفييتي عادي!!...فلم يكن ليثير اهتمامي (الملك ذو العيون الزرق) ولا (الكف اليمنى) أو (القفاز في الكف اليسرى)... إذ لم أجد في ذلك أي إنجاز شعري هكذا كنت... الى أن تفحّصت أشعارها الأخرى خاصة الأخيرة منها .

● لأيّ من الشعراء كنتَ تقرأ في تلك الفترة ؟

●● تسفيتايفا ومندلشتام .

● لقد قلت بأنّك حينها كنت كأي شاب سوفييتي عادي... لكن تسفيتايفا ومندلشتام لم يكونا شاعرين نمطيين ولم يكونا للعامة من القراء ولمثل هذا العمر كعمرك حينها... فمتى قرأت مندلشتام للمرة الأولى ؟...

●● لقد كان ذلك عام ١٩٦٠ أو ١٩٦١... إحدى أهم وأسعد فترات

حياتي... لقد كنت حينها عاطلاً عن العمل ، حيث توقّفت البعثة الجيولوجية التي كنت أعمل ضمنها بسبب موسم الحصاد ، فنقلت الى قسم جيولوجيا الكريستال في جامعة لينينغراد . وهناك كانت لجنة التحقيق الأولى... نعم... لقد كنت أوخز هناك بشكل مستمر... رغم ذلك بنيت لهم غرفة (الفراغ) أي المفرغة من الهواء وما شابه ذلك... لقدعملت كلّ ذلك بنفسي وبيدي... لقد كان العمل هناك ممتعاً... لكن عموماً كانت للعمل سمات مضحكة... فيوم العمل في الجامعة يبدأ في التاسعة صباحاً... بينما كنت أذهب في العاشرة لأن المكتبة في الجامعة تبدأ دوامها في العاشرة... لقد سجّلت نفسي كعضو في المكتبة في اليوم الثامن لعملي... ولكوني كنت ضمن العاملين في الجامعة ولست طالباً... لذا كان لي من الحقوق أكثر ممّا للطلبة... لقد استعرت أعداداً كبيرة من الكتب ومن ضمنها مجموعة «الحجر» لمندلشتام ثمّ «تريستيا» ... وهكذا كانت البداية... وبشكل عام يصاب المرء بالدهشة والذهول حينما يقرأ شاعراً عظيماً للمرة الأولى... فأنت لاتصطدم بمضامين جديدة فحسب وإنّما وقبل كلّ شيء بطفرة لغوية ، وأعتقد هذا هو مانعنيه بالشاعر العظيم... لأنّك بعد قراءتك له ستتحدّث بلغة أخرى...

بعد (الحجر) و(تريستيا) بعامين أو ثلاثة لم أقرأ شيئاً جديداً لمندلشتام... حتّى بعد تعارفي مع آخماتفا... أذكر أن أحد المسؤولين في المخابرات السوفييتية كان اتّهم آخماتفا بأنها تحرّض الأدباء الشباب وتدعوهم لقراءة أشعار ممنوعة ، وهذا شيء عار عن الصحة... فأنا شخصياً لم يطرأ في ذهني قط أن أطلب منها أشعار مندلشتام... وحتّى حينما قرأت أشعاراً لمندلشتام كانت جديدة بالنسبة لي ، فإن ذلك كان يتم بطرق ملتوية عديدة... عن طريق أناس غامضين ليس لهم أية علاقة بالأدب... فتيات وسيدات كنّ يفتحن حقائبهنّ ويخرجن منها (الله وحده يعلم) ماذا... أشياء ممتعة جداً... طبعاً كان ممتعاً ومثيراً للغبطة في النفس أن تعطى هذه الأشعار

لآخرين كي تقرأ... بل كنت أحياناً استنسخ هذه الأشعار وأوزعها على الآخرين... إنها حالة نفسية طبيعية...

• ألم تكن تلك (الفتيات والسيدات) من أتباع آخماتفا عادة ؟

•• ذلك ممكن... لكنهم كانوا يعتقدون بأنني على معرفة تامة بمؤلفات آخماتفا... وهذا طبعاً وهم... فأنا لم أكن أعرف حينها من مؤلفاتها سوى مجموعة شعرية لاتتعدى العشرين قصيدة .

• من المثير حقاً الحديث عن التجمع الثقافي اللينينغرادي نهاية الخمسينات وبداية الستينات... هل كنتم تجتمعون وتقرأون الشعر... خاصة مندلشتام ؟

•• لا ... لم يكن الأمر كذلك... وإنما كنا نسأل بعضنا بعضاً... (هل قرأت هذا أو ذاك ؟) ... ومن وقت لاخر كنا نلتقي في شقة أحدنا ثم نبدأ بقراءة أشعارنا فقط ، هكذا كان الأمر حينما كان لي من العمر ٢٢ ـ ٢٣ عاماً .

• عندَ من كنتم تلتقون ؟

•• عند أناس مختلفين . في البداية لم نكن نجتمع وإنما نتبادل الأشعار أو نعرضها على بعضنا ثمَ نبدأ بالنقاش ، وأحياناً يكون النقاش حاداً... بعض الأحيان تعرّض قصيدتك فيقرأها محاورك ولا يقول شيئاً سوى أن يعرض عنك بوجهه... وإذا ما امتلكت الشجاعة وسألته ما الأمر ؟ فإنه سيجيب : لاشيء... إنّك لم تصب المرمى... شخصياً أهم معلّم لي كان (راين) هذا إنسان ، اعتبر أراءه ووجهة نظره الأهم والأغلى عندي حتى الآن... أعتقد أنه يمتلك حاسة سمع مدهشة... لقد كنّا أربعة : راين ، نايمان ، بوبيشف وأنا... كانت آخماتفا تطلق علينا اسم (فرقة الإنشاد الساحرة)...

• هل هذه التسمية (فرقة الإنشاد الساحرة) مأخوذة من نص ما ؟

•• لا... أعتقد إنها من اختراع آخماتفا... لقد كانت تعتقد بأن هناك

حالة نهضة في الشعر الروسي... ولم تكن في اعتقادها هذا بعيدة عن الحقيقة . قد أكون متطرّفاً نوعاً ما... لكن يبدو لي أننا... وأقصد (فرقة الإنشاد الساحرة) هي التي أعطت النبض لما يجري في الشعر الروسي اليوم .

فحينما تقرأ الشعر الجديد بانتظام ، وهذا ماأفعله أنا بتحدٍ وبصورة ملموسة (وقد أكون هنا متطرّفاً أيضاً) تأثير مجموعة... تجد الإقتداء بها واضحاً... وأنا لاأقول هذا تحت أي تأثير بالحماس أو الحنين لمجموعتنا... ولكن هذا الأسلوب وهذه النبرة ظهرا أوّل الأمر داخل مجموعتنا .

آنا أندريفنا كانت تعتقد بأن مجموعتنا ستأخذ مكانها في الشعر الروسي كعصر فضّي ثانٍ [العصر الفضي الأوّل في الشعر الروسي كان منذ بداية القرن وحتّى ثورة اكتوبر ويضم الشعراء كوميلوف ، بلوك ، آخماتفا ، مندلشتام ، تسفيتايفا ، بوريسوف وغيرهم ـ المترجم] ... رغم أنني كنت ومازلت أشك في رأيها هذا . ولكن من يعرف... ربّما لست على صواب... من أن تجربة آخماتفا الشعرية أوسع بكثير وإن حلقة معارفها من الشعراء واسعة جداً... فمن لينينغراد لم نكن وحدنا الوافدين عليها... وإنّما كان هناك غيرنا وكذلك العديد من الشعراء في موسكو . مريدوها كانوا مختلفين في أذواقهم واتّجاهاتهم .

● أصحيح أنها كانت تطلق عليكم أيضاً اسم (الأفاكوميني) ؟

[أفاكوم : (١٦٢١ ـ ١٦٨٢) كاتب روسي حارب الكنيسة الرسمية ، سجن ونفي وعذّب الى أن تمّ حرقه بأمر القيصر (دائرة المعارف الروسية) م] .

●● لاأتذكر أنني سمعت بهذا منها شخصياً .

● وأنتم شخصياً هل أطلقتم على أنفسكم اسماً ؟

●● لا... لم يطرأ في أذهاننا مثل هذا...

● حتّى ولو كان اسماً مرحاً للنكتة ؟

•• مطلقاً... نحن ببساطة كنّا أصدقاء حميمين . علاقتنا ببعضنا كانت متينة جداً ، ومبنية على أساس ثقافي وإنساني .

• والآن ، حينما تلتفت الى الوراء ، هل تستطيع القول بأنّكم كنتم جماعة أدبية خاصة . هل كنتم مدرسة ؟

•• حينما التفت الى الوراء ، بلا شك . قبل فترة فكّرت بالأمر حينما قرأت أشعاراً جديدة لشاعر ما... ففي فترتي تشكّلت في لينغراد جماعة ، إنها تشبه جماعة بوشكين (الثريا) لحد بعيد... سواء من ناحية العدد أو السمات الشخصية للأعضاء... فمثلاً هناك الرأس الكسول ، الحكيم وهكذا...

كلّ منّا كان له دور شبيه... راين كان بوشكين ، أمّا بوبيشف فكان بمثابة دلفيك أمّا نايمان بذكائه الحاد والفريد فكان بمثابة فيازمسكي ، أمّا أنا بأفكاري الحزينة والسلبية فكنت أقرب لبراتينسكي... طبعاً ليس من الضروري مطلقاً إجراء المقارنات والمطابقات في هذا المجال .

• يبدو لي أن شخصية راين وحماسته لاتؤهّلانه لاحتلال هذه المكانة عند المقارنة...!

•• هراء... إنّك لاتعرف راين على حقيقته...

• أنا لاأريد أن أتحدّث عن أشعار راين ، لكن لنأخذ مقالاته وملاحظاته ،

•• إنه يكتب من أجل أن يوفّر لقمة العيش ، إنني لاأستطيع أن أتصوّر ما الذي سيعمله بوشكين في ظل السلطة السوفييتية ... إنّ مجرّد التفكير في ذلك ليثير الرعب...!

• أستطيع شخصياً أن أجزم وأقول لك بالحرف الواحد أنه كان سيمنع من دخول الأرشيف كي لايستطيع أن يكتب (تاريخ انتفاضة بوكاجوف) و (تاريخ بيتر العظيم) .

•• عموماً... في بيتر بورغ كلّ شيء ممكن... إن ذلك لايجرّ الى

الصوفية . لكن الى شيء قريب منها . في بداية هذا القرن كانت الظروف متشابهة لذا ظهرت مجموعة ما... بينهم بلوك ، مندلشتام... والحقيقة أنه من الصعب أن تحدّد من له الحق باحتلال دور بوشكين...

مندلشتام لم يكن زعيماً ، ويمكن القول أن مثل هذا الدور احتلّه الشاعر كوميلوف (بورشة شعرائه)... هذه المجموعة سمّت نفسها (ورشة الشعراء)... أمّا نحن فيجب أن نعترف بأننا لم نرق الى ذلك...

• ما الذي حدّثتكم به آخماتفا عن القرن الفضي (الأول) ؟

•• أنت تعرف أنني لست متعلّماً بما يكفي ولست مهذّباً بما يكفي... مثل هذه الأسماء والظروف لم تكن تثير اهتمامي... باستثناء مندلشتام... وبالتالي آخماتفا . فمثلاً أنا لاأحب بلوك... حالياً لاأحبه بسلبية أمّا سابقاً فكنت حاداً في موقفي منه .

• لماذا ؟

•• لقلّة الذوق... ففي رأيي أن هذا الشخص والشاعر سخيف جداً في الكثير من مواقفه وتجلّياته... فشخص قادر أن يكتب (أنا ألوي طبقات الصخر ، ساعة انصبابه في وحل الأيام... الى أين تمضي أكثر من ذلك... أو قوله (على الجسر... ملطّخة بالقيء ، ترقد ناظرة ، وكأنها حية ، بثوبها الوردي... محلولة الضفائر... جميلة وشابة...) قل ما الذي يمكن قوله هنا...!!! (جميلة وشابة...)...!!!

• لهذا أصبح نكراسوف قصراً شامخاً في الثقافة الشعرية الروسية ، ثمّ لاتنسَ أن بلوك كان يحب السينما .

•• ماذا تقول... نكراسوف ... السينما... مهما تكن مكانة الشخص ، لكن أن تقول عن امرأة... خاصة امرأة ميتة... (جميلة وشابة) إنني أفهم إنها العصر... وهذه جثة شاعرية ، لكن مهما يكن فإن ذلك يستفزّني ... هل تجد عند بوشكين (جميلة وشابة)...

• تجد عنده عبارة مثل (مع زوجته الشابة)...

•• لكن لاتجد مثل هذه العبارات عند مندلشتام... انظر بالمناسبة للبناء (الباراتينسكي)... مندلشتام مثل باراتينسكي : شاعر وظائفي بشكل غير عادي... لنقل أن لبوشكين نماذجه البوشكينيه الخاصة به... مثلاً... (على الضفاف الوحشية)... بالمناسبة... أتدري من أين جاءت (الضفاف الوحشية) ؟... هذه بالمناسبة ملاحظة (آخماتفيه) رائعة جداً... إنها جاءت من الشعر الفرنسي ـ حيث الإيقاع والقافية تتشابه... أو لنأخذ قافية بوشكين (الفرح والصبا)... [تلفظ بالروسية : رادست ـ فرح ـ ملادست ـ صبا ـ م] .

إنك تجدها عند باراتينسكي ... لكن حينما يدور الحديث عن (الفرح) فهو عنده معاناة شعورية محدّدة... وكذلك (الصبا) فإنه عنده فترة من العمر محدّدة... بينما عند بوشكين فإنّ هاتين الكلمتين تؤدّيان وظيفة موسيقية بحتة وهما تشكّلان القافية الشعرية .

باراتينسكي شاعر مقتصد ـ بل حتّى أنه كتب القليل جداً ولأنه كتب القليل فإنه أعطى أهمية كبيرة لما يخطّه على الورق... مثل مندلشتام...

• باراتينسكي... لم يكن أديباً محترفاً حسب الفهم البوشكيني لهذه الكلمة... إنه كان يسمح لنفسه أن يعيش في ضيعته دون أن ينشر شيئاً لسنوات...!

•• لو كان يعيش ظروفاً أخرى فلربّما ماكان ليسمح لنفسه بذلك... بل لكان ينشر أكثر... لكن رغم ذلك فإنّ جمهور القرّاء في ذلك الوقت كان قليلاً...

• هذا مايبدو لنا الآن... لكن خذ مثلاً... مجلة (نجمة الثريات) خلال ثلاثة أسابيع وزّع منها ألف وخمسمائة نسخة رغم أنها كانت غالية الثمن حينها .

•• على كلّ حال... نسبة قرّاء الشعر لاتتعدّى نسبة الواحد في المائة

من السكان في أحسن الأحوال ، وليس أكثر من ذلك .

• لكن باراتينسكي كان معروفاً سابقاً بالنسبة لقارئه الروسي مثل أي اسم لامع الآن في وقتنا...

•• ليس طويلاً... لم تدم شهرته طويلاً... وهنا أود أن استشهد برسالة رائعة أرسلها هو الى بوشكين : (أنا أعتقد أن الشاعر عندنا في روسيا ، في بداية تجاربه الفنية غير الناجحة ، يمكن له أن يأمل بالنجاح الكبير ـ حيث يتبعه الشباب واجدين فيه أحلامهم بكل ألوانها الزاهية وكل عنفوانها ، لكن بعدما يتطوّر الشاعر... ويكتب بعد ذلك بعمق وتفكير وجهد يبدو لهم بأنه مضجراً فيحاربون أشعاره لأنها على كلّ حال ليست نثراً)...

• باريتنسكي كان خائب الأمل ومتألّماً من اندثار شهرته... مجموعته (الغسق) مريرة وصفراوية ؟

•• هذه ليست مرارة وصفراوية... وإنّما صحوة ذهنية .

• صحوة ذهنية جاءت بعد يأس قاتل...

•• ثمّ ماذا... اليأس وخيبة الأمل بالنسبة للشاعر شيء ثمين... فلو أن اليأس لايقتل الشاعر فإنه سيصنع منه شاعراً كبيراً حقّاً... وفعلاً... كلّما قلت أوهامك كانت علاقاتك بالكلمة أكثر جدّية وحرصاً .

• ذوقياً... اعتبر (الغسق) أفضل كتاب في الشعر الروسي... خاصة قصيدة (الخريف)...

•• في كتاب (الغسق) قصيدة (القدح) هي الأفضل... ومادام الحديث يدور حول (باراتينسكي) فإنني أقول أن أفضل قصيدة في الشعر الروسي هي قصيدة (وحشة)... ففي هذه القصيدة كلّ شيء عبقري ـ الروح الشعرية ، البناء الشعري ، التفاعل مع العالم المحيط... طريقة الخطاب غير العادية... ففي النهاية حيث يقول باراتينسكي عن أبيه :

(منذ أمد بعيد لم أسمع منه نأمة...
فلقد أخفى رفاته قبر بعيد
وذاكرتي ... لم تحفظ سماته جيداً)

كل هذا الوصف دقيق جداً... أليس كذلك ؟

(فمازلت تعيش)

وفجأة يأتي بصفة رائعة :

(روحه السمحاء)...

ثمّ يستمر :

(وهنا ، ياصديق الأحلام والطبيعة...
أحس به تماماً)

هذا هو باراتينسكي حينما يتحدّث عن أبيه :

(إنه إلهام يضطرب في أعماقي ،
إنه يوصيني أن أمجّد الغابة ،
الوادي والمياه...)

وأسمع خطابه الرائع أيضاً :

(إنه يتنبأ لي ببلادٍ
حيث فيها أتتبّع الربيع بطيئاً
حيث أتفرّس الآثار الدوارس مستحضراً إيّاها...

حيث الظلال الوارفة لأشجار البلّوط البرّية
على ضفاف الأنهار الفيّاضة)

أي حضور ووضوح في رؤيته لعالمه...

(أنا ياظلّ... أقدّس اللقاء)...

في رأيي هذا شعر عبقري... أفضل من الأشعار البوشكينية ، هذه هي فكرتي القديمة عنه... هنا عالم اللقاء بالأب ، من يتحدّث عن ذلك بهذه الصورة ؟ فاللقاء مع الأب لايفترض هنا وعياً دينياً...

● وماذا عن (هاملت) شكسبير ؟

●● شكسبير ،الدراما الإغريقية ،فرجيل...نعم...ولكن ليس التقاليد الروسية...فهذه رؤية فريدة بالنسبة الى التقاليد الروسية...وهذا ماأدركه الكسندر بوشكين جينما قال عن باراتينسكي (إنه الأكثر أصالة بيننا ،وإذا مافكّرنا فإنه كان أصيلاً في كلّ شيء...وحيثما كان ، كان مستقلاً ،قوياً وعميق الإحساس) .

● هل تحدّثت آخماتفا عن باراتينسكي في وقت ما ؟

●● لا... لم يطلْهُ الحديث... وهذا ليس ذنب آخماتفا وإنّما ذنب المحيطين بها ، لأن الحياة الأدبية في المرحلة السوفييتية تمر في جانبها الأكبر تحت مظلة بوشكين ـ فالبوشكينية هي الإتّجاه الوحيد المزدهر في البحوث الأدبية... والحق يقال أن هذا الوضع بدأ بالتغيير شيئاً فشيئاً...

● إنني أجد غرابة أيضاً في أنّ آخماتفا لم تتحدّث عن شاعر آخر... وأقصد تيوتجف...!

●● أتذكّر أنه جرى الحديث عن تيوتجف بمناسبة صدور مجلّد صغير لأشعاره مع مقدمة لبيركوفسكي... ثمّ ماذا... إن (تيوتجيف) ، رغم ميلي نحوه فإنه لم يكن بتلك الروعة...

نحن نردّد : تيوتجف ، تيوتجف ،... أمّا في الواقع فإن قصائده الجيده لاتتعدّى العشر أو العشرين... وطبعاً هذا كثير أيضاً... وفيما عدا ذلك فإنه لم يكن ثمّة أديب أكثر إخلاصاً للحكّام منه قط... هل تذكر ، لقد تحدّث فيازيمسكي عن (الشعراء ذوي المعاطف الرسمية) إن تيوتجف كان (معطفياً) للغاية .

لقد كانت آخماتفا تحب أن تكرّر : (مهما قيل... تبقى الرمزية هي آخر أعظم تيّار في الأدب الروسي)...وأعتقد أنها كذلك حقاً ليس في الأدب الروسي فقط... هذا هو الواقع ، سواء مع أشخاص الرمزية أو عنها كمرحلة... لمّا أغنت به الثقافة وفي رأيي أنها حقاً كانت تياراً... ولو تسمح لي في اللعب بالكلمات فإنّ الرمزية عظيمة لكنها تبقى تياراً .

* * *

يوسف برودسكي

قسطنطين كفافيس (أغنية البترول)...

«١»

ولد قسطنطين كفافيس في العام ١٨٦٣ في الإسكندرية بمصر ، ومات فيها عن سبعين عاماً بمرض سرطان الحنجرة . غير أن حياته الهادئة والخالية من أية أحداث عنيفة ، أجبرت أكثر محافظي (المدرسة النقدية الحديثة) على السكوت .

لقد كان كفافيس الابن التاسع لعائلة ثرية ، سرعان ماضاعت ممتلكاتها بعد وفاة الأب . وحينما كان شاعر المستقبل في التاسعة من عمره أرسله أهله الى انكلترا حيث كان مقر الوكالة التجارية (كفافيس وأولاده) ، وقد بقي هناك الى حين بلوغه السادسة عشرة ، إذ رجع ثانية الى الإسكندرية .

كان قسطنطين ربّي على تعاليم الكنيسة الأرثذوكسية اليونانية وخلال هذه الفترة ارتاد مدرسة (هرمز) الثانوية للتجارة في الإسكندرية ، غير أن بعض المصادر تؤكّد على أنه كان ميّالاً لدروس التاريخ والفن الكلاسيكي أكثر ممّا لدروس التجارة ، لكنّ هذه المعلومات تبقى شكلية في مسيرة حياة الشاعر .

وفي العام ١٨٨٢ شهدت الاسكندرية تمرداً ضد الدولة البريطانية التي دكّت المدينة بالقنابل من اسطولها الرابض على البحر ، فأريقت دماء كثيرة . حينها كان كفافيس في التاسعة عشرة ، وكان في رحلة الى القسطنطينية مع أمه ، لذا فإن الحظ لم يحالفه هنا أيضاً في أن يكون شاهداً على حدث ربّما كان من الممكن أن يمنح سيرة حياته بعض الحركة .

عاش في القسطنطينية ثلاث سنوات كانت من أهم السنوات في تطوّره ، وفيها مزق يومياته التاريخية التي كان يكتبها منذ سنوات تحت عنوان (الاسكندرية) ، ويزعم أنه جرّب فيها أول علاقة مثلية .

وفي سن الثامنة والعشرين تسلّم كفافيس أوّل وظيفة مؤقّتة له كموظّف مساعد في قسم البلدية لوزارة المواصلات العامة . لكن هذه الوظيفة المؤقّتة استمرّت لثلاثين عاماً لاحقة ، ولكي يسد نفقات المعيشة كان يعمل أيضاً كسمسار في بورصة الاسكندرية .

لقد كان كفافيس يجيد اللغة اليونانية القديمة والحديثة ، كما كان يجيد اللاتينية ، العربية ، الفرنسية ، وقد قرأ (دانتي) بالإيطالية ، كما كتب أولى قصائده بالانكليزية . ولكن إذا مافتّشنا عن تأثيرات ممكنة عليه ، وهذا مايركن عليه أدموند كيلي في كتابه (اسكندرية كفافيس) ، فإننا نجد تأثير الرومانسية الانكليزية ، ويؤكد كيلي بأن هذا التأثير هو في حدود تطوّره الشعري فقط ، لأنه لم يخرج أبداً عن (قانون) حياته الرتيبة ، لذا فإن تأثير الرومانسية الانكليزية يجب أن يستبعد عن نمط حياته . أمّا في ما يخص المراحل المتأخرة من حياة كفافيس فإنه انشغل بالفترة الهيلينية وشخصياتها وما كان يخط على شواهد قبورهم ، وهذا مايميّزه ويحقق خصوصيته .

إنّ حياة كفافيس الخالية من الوقائع والأحداث المهمة تصل الى أنه لم

ينشر أي كتاب شعري خلالها . فلقد كان يعيش في الاسكندرية ، يكتب قصائد ، كان يسمح أن تُنشر أحياناً على شكل كراريس أو وريقات في دائرة محدودة جداً وبنسخ محدودة أيضاً ، وكان يجلس في المقاهي مع الأدباء المحليين أو العابرين ويتناقش معهم ، يلعب الورق ، ويحضر سباقات الخيل ، ويرتاد المواخير وبيوت الفسق بالغلمان ، كما كان يرتاد الكنيسة أحياناً ليؤدي الصلاة .

أعتقد أن هناك مايقارب خمس ترجمات لأشعار كفافيس بالانكليزية ، (بالعربية ترجمة سعدي يوسف ، وترجمة د . نعيم عطية ـ م) ، إلا أن أهم وأنجح هذه الترجمات هي لراي دالفن ولادموند كيلي مع فيليب شيرارد والتي نشرت بلغتين . ففي عالم الترجمة هناك القليل ، بل يكاد يعدم ذلك العمل الجماعي في ترجمة شاعر ما ، من حيث أن المترجمين يقدّمون أحياناً ، لجهلهم ترجمات أسلافهم ، على عمل مضاعف . ولكن كقارئ يستطيع المرء أن يستمد من هذا العمل المضاعف الفائدة . وفي حالة هاتين الترجمتين لكفافيس ، فقد كانتا تهدفان الى تقديم الشاعر بلا تنميق أو زخرفة ، وبهذا الصدد فإن ترجمة كيلي وشيرارد تتقدّم على ترجمة دالفن ، ومن حسن الحظ أن أقل من نصف القصائد ترجمت بوزن وقافية وكانت من قصائد البدايات .

إن كل شاعر يخسر عند الترجمة ، وكفافيس ليس استثناءً ، ولكن مايخسره من هذه الجهة يفوز به على الجهة الأخرى ، إنه يفوز ليس لكونه شاعراً تعليمياً فحسب ، وإنّما لكونه بدأ مابين ١٩٠٠ ـ ١٩١٠ بلا أية صناعة شعرية ، كالصور المزخرفة أو المبهرجة ، التشبيهات والتلاعب اللفظي والقافية .

هذا هو اقتصاد النضوج ، وكفافيس قد حرص على أن يكون في الوسط (الفقير) في استخدامه للكلمات والعودة إلى الحصول معانيها كخطوة أبعد في

اتّجاه الاقتصاد اللغوي ، فهو يصف الزمرّد (بالأخضر) ،والجسد (بالفتوة والجمال) . إن هذه التقنية لها علاقة بتصوّرات كفافيس نفسه عن اللغة ، ليس باعتبارها أداة لتجسيد المعرفة وإنّما لتجسيد الإندماج والإندغام ، وبأن الجوهر الإنساني بطبيعة الحال يستخدم اللغة مثل المسكن والملبس ، والشعر هو السلاح الوحيد الذي يحاول ، في مثل هذا الوضع ، أن يضرب اللغة بوسائل لغوية .

إن استخدام كفافيس للصفات (الفقيرة) يستدعي تأثيراً غير متوقّع وإطناباً روحياً ، ممّا يضعف قوة الخيال عند القارىء ويقيّدها ، لذا فإن ترجمة كفافيس هي خطوة تالية في الإتّجاه الذي اقترحه الشاعر نفسه ، خطوة كان كفافيس نفسه يسعى لخطوها ، وربّما لم تكن هذه الخطوة ضرورية قط ، فاستخدامه للإستعارة والمجاز يكفيه ، متوقفاً عند نقطة اختياره لها .

إن كفافيس أقدم على شيء سهل جداً ، فاثنين من العناصر عند جمعها يشكلان عادة ، استعارة أو مجازاً . فموضوع الوصف (المضمون ، اللب ، الجوهر) هو (العام ، المشترك) كما يسمّيه الناقد ي .أ . ريتشارد . وإن الموضوع الذي يقدّم نفسه صورياً أو لغوياً مجرداً هو (المركبة ، الهيكل) أو هو (الصورة) . والقيمة التي يحملها القسم الثاني عادة تمنح النص المكتوب إمكانية تطوّر متصاعد ولانهائي ، وهكذا تنشأ القصيدة .

وماقام به كفافيس منذ بداية الطريق كشاعر وبامتياز ، هو أنه وبدون أي تكلّف ارتفع فوق الجزء الثاني ، وكرّس كل حياته ومسيرته على ماتبقى ، وطوّر مصطلحاته الشخصية ، وبنى دونما أي قصد معماره على القسم الأوّل الذي اعتبره مسألة طبيعية (فالمركبة ، الهيكل ، الاستعارة) هي الاسكندرية ، أمّا (اللب) فهو الحياة .

«٢»

كتاب (اسكندرية كفافيس) يحمل تعريفاً تابعاً للعنوان (دراسة عن نشوء مفاهيم الإسطورة) ، وبما أن استخدام (نشوء الأسطورة) مأخوذ عن جورج سيفيرس ، فإن عنواناً فرعياً مثل (دراسة عن نشوء مفاهيم الاستعارة) كان يؤدّي الغرض نفسه .

فالأسطورة في الجوهر سمة وخاصية لما قبل الفترة الهيلينية ، وكلمة (أسطورة) تبدو هنا وكأنّها اختيرت اعتباطاً ، لاسيما حينما يفكّر المرء بكفافيس ونظرته لابتذال وعامية الموضوعات الإغريقية ، الأسطورة وتمرّد الأبطال ، الغيرة القومية وماشابه من الموضوعات التي حاول عدد كبير من أدباء بلاده ومن الأجانب أيضاً أن يروا كفافيس من خلالها .

إن (اسكندرية) كفافيس ليست مكاناً عجيباً ، إنها ليست أكثر من مكان مقفر ومخرّب في طور الإنحلال عندما يشل انهيار محتوم خلجات الأسف الحقيقية في أعماق النفس .

إنّ افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ ساهم بشكل كبير في التعتيم على الإسكندرية أكثر ممّا فعل الإحتلال الروماني والزحف المسيحي والفتح الإسلامي مجتمعة ، فقد غيّرت جميع السفن المبحرة ، والتي كانت المصدر الرئيسي للدخل الإقتصادي للاسكندرية ، مواقع رسوها الى ميناء (بور سعيد) . نعم ، لقد نظر كفافيس الى هذا الأمر وكأنه صدى بعيد آتٍ من زمنٍ ما ، أو كشاهد على القرن الثامن عشر وقبله ، من زمن هروب آخر سفن كليوباترا على الطريق ذاتها الى الحرب الخاسرة في (اكتيوم) .

إنه يسمّي نفسه (شاعراً تاريخياً) ، وعلى هذا الأساس يقدّم لنا كيلي بناءً معمارياً أثرياً ، لكن على المرء أن لاينسى أن كلمة (التاريخ)

يمكن استخدامها على مدى سعي وجهاد الأمم مثلما على سعي وجهاد الأفراد ، وفي كلتا الحالتين يتألّف التاريخ من : (الذاكرة ، الوقائع ، ومن التفسيرات) .

إنّ كتاب (اسكندرية كفافيس) يشكّل بحثاً أثرياً غنياً ، لأن (كيلي) كان يعي ، من أجل انجاز طبقات مدينة وهمية ، أن هذه الطبقات يسهل القاؤها الواحدة فوق الأخرى ، لذا قام بذلك بحرص شديد ، إنه يفرق وبشكل واضح خمس طبقات أو أبعاد لهذه المدينة : المدينة الواقعية ، المدينة المجازية ، المدينة الحسية ، الاسكندرية الإسطورية ، وأخيراً العالم الهيليني . بعد ذلك يقوم بإلقاء نظرة منهجية شاملة ومرتبة زمنياً ، والتي يمكن على أثرها تصنيف كلّ قصيدة لكفافيس وعلاقتها بإحدى هذه الطبقات . فهذا الكتاب يقدّم للاسكندرية الوهمية مدخلاً رائعاً ، مثلما قدم كتاب ي .م . فورستر للمدينة الواقعية . (لقد كان فورستر أوّل من قدّم كفافيس للقارىء الانكليزي ، وقد أهدى كتابه لكفافيس) .

إن اكتشافات (كيلي) لمفيدة ونافعة مثل منهجه ، وإذا لم يتّفق المرء معه حول بعض استنتاجاته فإن ذلك يعود لكون كفافيس ليس أكثر من ظاهرة لم تسبر من قبل (كيلي) بشكلٍ كافٍ . لكن لابدّ من الإعتراف بالمقابل بجهده الرائع في ترجمة كفافيس . وإذا ماكان في كتابه يتجنّب التصريح لغوياً ببعض الأشياء فإن ترجمته للنصوص قامت بهذه المهمة .

إن واحدة من أهم خصائص الكتابة التاريخية ، لاسيما التاريخ القديم ، تكمن في ازدواجية الأسلوب ، والتي هي متأتّية إمّا من فيض (تناقضات الوضوح المضيء) أو من الإنطباعات عن تناقضات (تقييم هذا الوضوح) . فهيرودوت وتوكوديدس مثلاً يصمتان عن (تاكيتوس) بالكامل . وهنا فإن (الإزدواجية) بكلمات أخرى ، هي نتاج جانبي يتأتّى من خلال الصراع من أجل الموضوعية التي هزت ، في فترة الرومانتيكيين ، بهذا الشكل أو ذاك

كل شاعر أصيل ومجيد . ونحن نعرف أن كفافيس كصاحب أسلوب مجيد كان قد مضى في هذا الإتّجاه ، كما نعرف تعلّقه العشوائي بالتاريخ .

كانت لكفافيس موضوعيّته إزاء العصر ، وازدواجيّته الإرادية ، وصوته المتألم الذي رافقه طول سنواته الثلاثين ، وتمسّك هو بفكرته عن التاريخ ، وبشكل أدق بعادة قراءته للتاريخ التي منحته قناعاً ، فالانسان هو مايقرأ ، وهذا أوّل ماينطبق على الشاعر . واستناداً الى هذه النظرة ، فإن كفافيس ليس إلا مكتبة اغريقية ، رومانية ، وبيزنطية متنقلة ، إنه مكتبة جامعة من الوثائق والنقوش الكتابية التي رسمت ذلك المشهد بين الروم والإغريق خلال القرون الثلاثة قبل الميلاد وحتّى بداية القرن الرابع بعد الميلاد .

إنّ الإيقاع الطبيعي للزمن قبل الميلاد ، وحمى النبرة المنبرية للزمن بعد الميلاد ، هما المسؤولان عن تطوّر أسلوب التعبير عند كفافيس . فهذا التقاطع مابين الملاحظات العابرة ونبرة الختام ، هو نمط كتابته سواء كانت موضوعات (تاريخية) أو (غنائية) ، وبهذا يحقق تأثيراً خاصاً ومميّزاً ، تؤكّده غيبوبته الوجدانية ونشوة الانجذاب الى سيل الكلام ، والى الافصاح العابر مع الصمت المدفون . فتحت ريشة كفافيس تكون الأنماط العاطفية والأعراف متشابكة مثل (الفقر) الذي يتّسم به قناعه .

إنه لمزعج حقاً أن تضع الحدود لتحاصر بها الشاعر ، وهذا ماسعت اليه (معمارية وآثارية) كيلي . إنه يقدّم كفافيس كشاعر وجد صوته وموضوعه ، إنه يقدّمه وقد جاوز الأربعين ، ناضجاً ، واضحاً في رؤيته ، لاسيما في ما يخص (المدينة الواقعية) ، الاسكندرية التي كان قد قرّر البقاء فيها . فهو يبحث عن أسباب مقنعة وجيّدة لكفافيس الذي واجه صعوبة اتّخاذ موقف مثل البقاء في هذه المدينة وعدم مغادرتها .

وباستثناء ست قصائد أو سبع ، تلوح (المدينة الواقعية) واضحة ضمن (قانون) كفافيس في بقية قصائده البالغة (٢٢٠) قصيدة ، ومايبرز اليوم هو

(المدينة الأسطورية) و(المجازية) ، وهذا يؤكّد حجة (كيلي) ، فالتفكير الطوباوي ، في حالة كفافيس ، يمتد الى الماضي ، لكن من الطبيعي لايمكن النظر هنا لها من زاوية السمات غير المحتملة للحاضر ، فكلّما كان المكان مخرّباً أو مهجوراً كانت الرغبة أقوى في بعث الحياة فيه ، وإنّ الإدّعاء الذي يؤكّد أن الشيء غير الإغريقي في كفافيس هو الذي دفعه للبقاء في الإسكندرية ، أو أن الإنزعاج الشخصي له من الأسطورة كان لعب دوراً في ذلك ، لايعني سوى الهروب من الحرية .

وهناك تفسير آخر لقرار بقاء كفافيس في الإسكندرية ، هو أنه لم يود أن يصدّق أنه حقّق شيئاً ما ، الى جانب وجود (الإسكندرية الوهمية) التي تنبض بالحياة .

إنّ الفن هو شكل من أشكال التعويض عن الوجود ، وكلّما تمّ التركيز على كلمة (الوجود) ، أصبحت العملية الإبداعية هروباً من الواقع وتسامياً فوقه ، وهنا يجب التأكيد على أن كفافيس لم يكن مكبوتاً قط مثل ما يبرز ذلك في تعامله مع المدينة الحسية من خلال قصائده .

هناك بعض الإشكال هول (مثلية) كفافيس ، لكن حينما يربط المرء أفكار كفافيس بسلوكه ضمن حوض البحر المتوسط ، وبشكل تقليدي ، فإن ذلك لن يساعده إلا قليلاً ، لأن الفرق بين الفترة الهيلينية والفترة التي كان يعيش بها لكبير جداً .

ولربّما كان الجو الأخلاقي لتلك المدينة العريقة نبهه الى اللجوء للتمويه ، أو أن الذكريات عن فترة البطالسة الطيبة قد أوحت اليه بقطعة من الإفتخار أو المبالغة ، لكن لا هذا ولا تلك تمكّنت من كفافيس ، لأنه كان شاعر التأمّل بالدرجة الأولى ، والتعامل مع هذا أو تلك ليس لهما علاقة بمشاعر الحب الحقيقية ، كي يسعى الى التوفيق بينهما .

إنّ تسعين في المائة من أفضل الشعر كتبت بعد النشوة ، وشعر

كفافيس من هذه التسعين ، فأياً كان موضوع القصيدة ، فإنه يبدو لديه دائماً كحالة استذكار أو استعراض ذهني .

إن سلوكه (المُثْلي) قوّى عملية التحليل الذاتي لديه ، ربّما لأن تصوّره عن الإثم والخطيئة صار أكثر وضوحاً ممّا لو ارتكن الى قيمة اجتماعية ثابتة ، لذا فإن نفسيّته هي كنفسية أية أقلّية اجتماعية ، إذ هي مزدوجة وذات ظلال دقيقة جداً ، إنها تدور حول إحساسها المرهف ، حيث تجري حساباً روحياً يجعل الإضافة ممكنة ، ومن هنا فإن سلوكه ليس إلا (تطرّفاً) استهلك قوّته العقلية والعاطفية .

إنّ الحياة قد قدّمت مصطلح (المُثْلية) في أكثر التخمينات والأحوال كمصطلح مضاد ومعاكس (للغيرية) ، إن مثل هذا المصطلح ربّما قدّم (دافعاً) مثالياً له للاحتراق الإبداعي ، رغم أن مثل هذا الدافع لم يكن يسبق النص .

ومن الطبيعي أن مايستخلصه الفن هو ليس النتيجة (السلوكية) وإنّما مايمكن أن يستشفّه المرء من هذه النتيجة .

وإنّ النقاد السطحيين والمغرضين فقط ، هم الذين أشاروا بشكل سيء الى قصائد كفافيس الإباحية على أنها مثال على (الولع باللذات) .

إن كفافيس كتب قصائده عن الحب الروح نفسها التي كتب بها قصائده التاريخية . ولو ألقينا نظرة الى الوراء لتفحّص الأشياء لرأينا أن كلمة (المتعة) ، باعتبارها واحدة من أكثر الكلمات استعمالاً عند كفافيس من أجل تجسيد الوقائع الأيروسية التي يتذكّرها ، وكذلك كلمة (الخسيس) ، ليست إلا بقايا بائسة لفترة رائعة ، مثلما هي (الاسكندرية الواقعية) عند كيلي بالضبط .

إن راوي هذه الأشعار الغنائية ليس إلا الإنسان المنفرد الذي يعيش في زمنٍ يحتقر نفسه ، فاستعاض بزمن آخر كانت شوّهته أمور وقضايا ألغت وجوده .

إن الآلة الوحيدة التي هي تحت تصرّف الجوهر الإنساني ، والتي بها يستطيع أن يقتنص الزمن هي : الذاكرة . ولكفافيس ذاكرة فريدة وبارعة في المضي باتّجاه التاريخ ، فالقوة الدافعة للحب تبني جسوراً مابين الحسي والروحي وتمتد أحياناً حتّى المقدّس .

إن الإيمان بوجود حياة بعد الموت يلعب دوراً مهماً ليس في عملية وصالنا وإنّما في عملية إنفصالنا أيضاً ، إنه لتناقض ظريف ، إلا أن أشعار كفافيس هي كالأشعار الهيلينية تبحث في (زمن الهوى) وتتأمّل في التقليدي وتشغف بلمس (العابر) ، إنها محاولات ، بل وأكثر من ذلك ، خيبات تسعى إلى الإبقاء على الظل الحبيب واقتناصه كصورة فوتوغرافية .

إنّ الأدبيات المكتوبة عن كفافيس تميل الى إخضاع آفاقه لنواظيرها ، وتقسم يأسه لفترات ، وتفسّر لاعقلانيّته وعبثه بالرغبة في السخرية . غير أن قصائد الحب عند كفافيس ليست (مأساوية) ، وإنّما قصائد خصبة وطالما أن المأساة لها علاقة بالوقائع الكاملة سنجد العنف ثمرة الخيال ، ولايهم إن كان لهذا علاقة بالمستقبل أو حتّى بالماضي .

إنّ إحساس كفافيس بالخسران أكثر حدّة من إحساسه بالفوز ، لأن تجربة الإنفصال تبقى أطول من تجربة التواصل ، ومن هنا يبدو كفافيس أكثر حسّية على الورق منه في الواقع تقريباً ، من حيث أن الأثم والكوابح تفرض شروطاً قاسية . فقصائد مثل (قبل أن يغيّرها الزمن) أو (الأشياء المخفية) تشكّلان ضداً كاملاً لرأي سوزان زونتاك حين تقول : (الحياة فلم ، بينما الموت صورة) ، وبكلمة أخرى فإن الولع الحسّي لكفافيس يبدو من خلال حسه التاريخي ، لأن التاريخ يعني بصورة ما أنه لايرجع القهقرى ، أو يمكن القول لو أنّ قصائد كفافيس التاريخية لاتدلّنا الى مذهبه الإباحي لبدت نكات سمجة ثقيلة . والمثال الجيد على فعالية ازدواج التقنية هي تلك القصيدة التي تتحدّث عن (قيصرون) ابن كليوباترا ، والذي

كان في الخامسة عشرة من عمره حينما شنق بأمر من القيصر (أوكتافيان) في (الاسكندرية المحتلة) . فما أن قرأ (الراوي ـ الشاعر) ذات مساء في أحد كتب التاريخ اسم (قيصرون) حتّى امتد بخياله (وجسّده لنفسه حسبما شاء) ، حتّى أننا في نهاية القصيدة تقريباً ، حينما يقتل (قيصرون) نكاد نحس ونعيش عملية الشنق المرعبة ، عندها تأخذ تسمية (الاسكندرية المحتلة) والمغلوبة على أمرها بعدها الخاص : الاعتراف الأليم بخسارة شخصية .

ليس التركيب الفنّي بقدر ماهي تلك الموازنة مابين الحسّي والتاريخي ، هي مايتركه كفافيس لقرّائه (ولنفسه أيضاً) عن هذه القصة الإغريقية القديمة ، فهي تنطلق من فم كفافيس مليئة بالإقناع والقوة ، وإنها تزداد كذلك ، كلّما كانت قصائده التاريخية تتحدّث عن انحلال واضمحلال العالم الهيليني ، عن وضع يستطيع هو أن يجسّد نفسه فيه كذات في صورة مصغّرة ، منمنمة ، صورة في مرآة ، وأحياناً يبدو وكأنه لايستطيع الاحتفاظ بصورته المصغّرة لذا فإنه يقدّم لنا صورة مكبّرة جداً عن الإسكندرية ومحيط العالم الهيليني ، أمام العين ، صورة لنقش على الجدار ، وإذا مابدا مهشّماً ومقطّعاً في بعض منه فلأنه يكشف لنا أروقته ومداخله ، مثل ما يكشف عن أعمق لحظات الإنحلال السياسي والثقافي للعالم الهيليني الذي يتهاوى ، فمع موت الاسكندر الكبير بدأت الامبراطورية تتداعى ، إذ أن الحروب ، اللصوصية ، والخصومات والتمرّدات مزّقت ما تبقّى . فالقوة الوحيدة التي كانت تحرّك مفاصل السياسة الأممية للامبراطورية هي : جاذبية اللغة اليونانية ، وهذا ماجسّده كفافيس في حياته ، وقد نسمع صوتاً طليقاً ، يدوي عالياً في أشعار كفافيس ، مجسّداً جماليات الحياة الهيلينية اليومية والتي كشفت من : الأبيقورية ، الفن ، الفلسفة ، السوفسطائية ، وخاصة اللغة الإغريقية العريقة .

«٣»

إنّ تبادل السمات مابين الوثنية والمسيحية في عالم كفافيس الشعري وتداخلها هو الموضوعة الوحيدة التي لم يستطع كتّاب (كيلي) أن يبحثها بشكلٍ كافٍ ، وهذا طبيعي ، إذ أن هذه الموضوعة تحتاج لكتب خاصة بها .

إن حصر كفافيس في حدود سلوكه الجنسي ، والذي هو ضد المسيحية ، لهو تبسيط . لقد كان واضحاً وكافياً الإعتراف بأن في عروق كفافيس مزيجاً من الوثنية والمسيحية يسري ، وهذا المزيج قد ولد معه ، وإذا ماشعر بأنه عرضة للتوتّر فإنه لم يكن يلقي باللائمة على هذا الطرف أو ذاك ، وإنّما عليهما معاً ، لأن إخلاصه لكليهما لم يتصدّع قط ، فهو ظاهرياً كان مسيحياً ، إذ كان يحمل صليباً طوال عمره ، وكان يذهب الى الكنيسة يوم الجمعة الحزينة ، كما كان تقبّل المسح بالزيت وهو على فراش الموت ، ولربّما كان مسيحيّاً مخلصاً ومقتنعاً حقاً ، على الرغم من أنه كان يسخر بشدّه من أبناء ملّته قائلاً إنهم متعصّبون في عدم تسامحهم . لكن مايهمّنا كقرّاء هنا هو ليس صلة كفافيس بالكنيسة وإنّما قدرته على مزج ديانتين ، وخلق هذا النمط (الكفافيسي) الذي يجعل منه مسيحياً ووثنياً في آنٍ .

ففي نهايات المرحلة الوثنية ، ورغم أن هناك من تنبأ بظهور المسيح ، كما أنذر الناس بالإبادة الكلية والإمحاق إذا ماسدروا في غيّهم وتركوا زمانهم وراء الملذّات ، فإن الإسكندرية كانت تعج وتضج بالعقائد والإيديولوجيات كاليهودية ، والديانة القبطية المحلية ، والأفلاطونية الجديدة والمسيحية القادمة تواً... أمّا في ما يخص الشرك والتوحيد فقد كان ثمة حوار ودّي وجدل عميق يجري في أروقة مكتبة الإسكندرية .

إننا حين ندع عقيدة تلعب ضد أخرى فنحن في هذه الحالة نحلّ كلاًّ منهما عن سياقها وخلفيات نصوصها ، وبالضبط لهذا السياق ، وماوراء النص

وصل أهل الاسكندرية ، الى أن جاء اليوم الذي استطاع المرء فيه تنبيههم الى إقرار الإمان بهذه العقيدة أو تلك ، وهذا ما لم يعجبهم ، مثل ما لم يعجب كفافيس . فهو يستخدم كلمات مثل (الوثنية) و (المسيحية) ، ويجب علينا أن نواجه ماكان يتماشى معه لأن الكلمات هي : اقترابات ، اتّفاقات ، قاسم مشترك ، وإن الحضارة تستند إلى القاسم المشترك الأصغر .

إن كفافيس يستخدم في قصائده التاريخية مايسمّي (بالإستعارات الاعتيادية) ، ومن ضمنها الإستعارات التي تقترب من الرمزية السياسية .

وقد نجد ذلك واضحاً في قصيدتي (داريوس) و (بانتظار البرابرة) ، وهذا سبب آخر يفسّر لِمَ يبدو كفافيس قريباً ومفهوماً أكثر . فالسياسة هي نوع ممّا وراء اللغة (ميتا ـ لغة) ، إنها بدلة روحية رسمية ، وعلى الضد من أغلب الشعراء المعاصرين نجح كفافيس وبشكل مبدع في أن يفك أزرار هذه البدلة الروحية .

لقد كتب كفافيس سبع قصائد عن (جوليان) ، وهي كثيرة لحدٍ ما خلال فترة قصيرة (ثلاث سنوات) ، وهي طول الفترة التي حكم جوليان فيها كقيصر ، وأكيد أن هناك دوافع لدى كفافيس في شخصية جوليان .

فلقد نشأ جوليان على العقيدة المسيحية ، لكنه حينما اعتلى العرش أراد أن يعيد الوثنية كديانة للدولة الثانية ، ورغم أن فكرة (دين الدولة) في ذاتها تؤكّد الجانب المسيحي عند جوليان ، إلا أنه عالج القضية بطريقة أخرى ، إذ أنه لم يطارد المسيحيين ولم يحاول الضغط عليهم من أجل نبذ عقيدتهم . وإن مافعله هو أنه لم يناصر المسيحية داخل الدولة ، وأطلق حكماءَهُ ليمارسوا طغيانهم ضد الرهبان المسيحيين ، فأثناء التدريبات الفعلية للملاكمة الفكرية والعقائدية خسر الرهبان أكثر الجولات ، مرة بسبب التناقضات الدوغمائية في تفسيراتهم ، ومرة بسبب كون الرهبان لم يتهيأوا لمثل هذه المناظرات على عكس خصومهم ، فقد كان الرهبان ينظرون لتعاليمهم على أنها متفوقة مسبقاً .

على كل حال ، قدّم جوليان نفسه كمتسامح مع من كان يسمّيهم (الجليليين) ووحداتهم الثلاث التي كان يعتبرها خليطاً من الوثنية الإغريقية والوحدانية اليهودية . كما أن الشيء الوحيد الذي يمكن للمرء أن ينتبه اليه في عصر جوليان هو إعادة بعض المعابد للوثنيين ، تلك التي كان المسيحيّون صادروها خلال الحكم السابق على جوليان ، الى جانب منعه التبشير بالمسيحية وكسب الأتباع لها في المدارس ، بحجة : (أن من يحتقر ألهة الإغريق القدماء ، يجب أن لايعلّم الشباب ولا أن يفسّر أعمال هوميروس ، هيسيود ، ديموسيتس ، توكيديووس وهيرودوت الذين عبدوها ، وإنّما عليه أن يفسّر إنجيل متَّى ، ولوقا في الكنائس الجليلة) . ومن هنا فإن المسيحيين لم يقدّموا شيئاً من أدبهم الخاص ، وبما أنهم لم يستطيعوا الرد على حجج جوليان فقد أخذوا يشتمونه ويصمونه بفزاعة الحقول ، آكل لحوم البشر ، الكذّاب الأشر . والحقيقة أن ماكان يثير كفافيس هو الهدف الذي أراد جوليان الوصول اليه ، وكيفية مواجهته لهذه المشكلة وحلها .

ويبدو أن كفافيس كان ينظر لجوليان كرجل أراد أن يترك الأفاق مفتوحة أمام هذين الإتّجاهين ، وذلك بخروجه الى طريق تجمع بينهما . وبالتأكيد كان هذا تصرّفاً معقولاً ، من حيث أن الصراع كان مكشوفاً ، وهو بالأخير رجل دولة وسياسي .

وهكذا وجد كفافيس في جوليان روحاً قلقة هزّتها المعرفة بحيث أنها لم تكتف بأحد هذين الإتجاهين ، وهذا ما وسّع المشهد الشعري عنده ، إذ يلاحظ المرء أنه لايختار أيضاً أحد هذين الإتّجاهين ، وإنّما هو مثل البندول يتأرجح بينهما .

١٩٧٥

الفهرس

يوسف برودسكي

نوبل ١٩٨٧

- ولد برودسكي في ١٨ تموز عام ١٩٣٣ بمدينة لينينغراد السوفياتية .
- أول كتاب للشعر ظهر له في موسكو عندما كان في التاسعة عشرة من عمره .
- في عام ١٩٦٥ ظهرت له في الولايات المتحدة وأوروبا مجموعته الشعرية المعنونة «قصائد» وتبعها بـ«محطة في الصحراء» .
- نال جائزة نوبل للآداب عام ١٩٨٧ .
- نصوص برودسكي الشعرية لها نكهة خاصة ، إنها تداخل غريب بين الصوفية والسريالية ، واستخدام مذهل للأصوات وللقطع المونتاجي من أجل خلق مناخ للقصيدة ، بل إن لدى برودسكي استخداماً غريباً وفريداً للقصص وللاستعارات التوراتية لاسيما في قصيدته الطويلة (اسحق وابراهيم) مما يمنح قصائده بعداً فلسفياً ميتافيزيقياً... (إن أشعاري تكاد تكون عن شيء واحد هو : الزمن) ، هكذا قال في أحد تصريحاته .

ISBN => 2-84305-103-7
EAN => 9782843051036